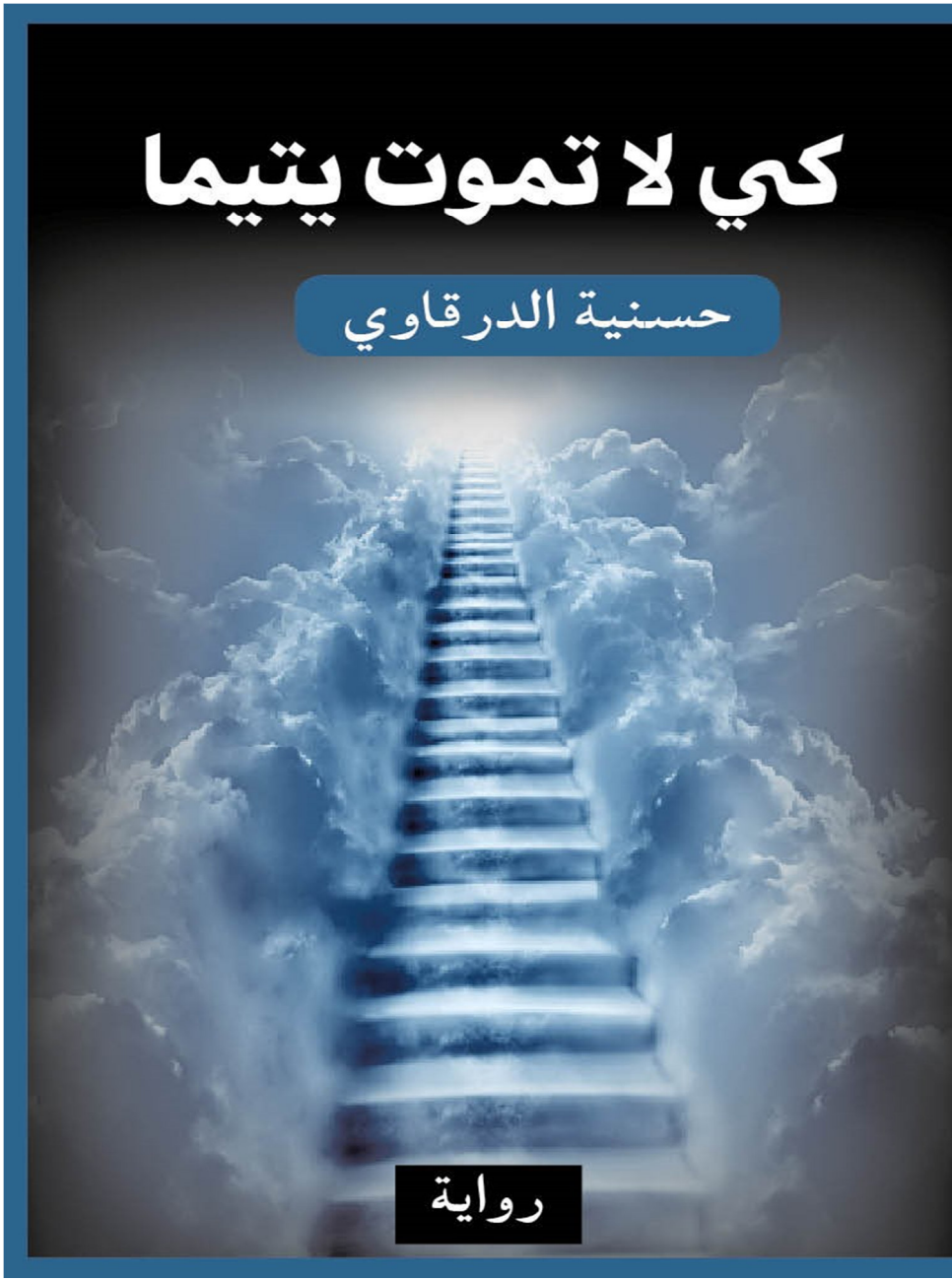
كي لا تموت يتيما
حسنية الدرقاوي
رواية

كي لا تموت يتيما

حسنية الدرقاوي

رواية

عنوان الرواية : كي لا تموت يتيما
تأليف: حسنية الدرقاوي
التدقيق اللغوي: الأستاذة حنان شمراح
تصميم الغلاف: حسنية الدرقاوي
الطبعة الأولى 2023
رقم الإيداع القانوني
2023MO2276
الردمك
978-9920-9861-1-3

جميع الحقوق محفوظة للكاتبة، لا يسمح بإعادة إصدار الكتاب أو جزء منه بأي شكل من الأشكال أو بأي من أدوات النشر الإلكتروني أو النسخ أو التسجيل الصوتي إلا بإذن خطي مسبق من الكاتبة.

الغربة الوجودية الحقيقية..

أن تكون يتيما في القبر..

دون علم ينتفع به..

أو صدقة جارية..

أو ولد صالح يدعو لك!

الغربة الحقيقية أن تكون بموتك..

أقفلت كتاب حسناتك!

المحظوظ من يترك واحدا مما ذكر..

كي تتجدد عليه الرحمات بعد موته.

أصعب معركة يمكن أن تقهرك..
هي تلك التي تخوضها مع نفسك ضد اليأس..
وأشرس مراحلها حينما تقهرك الظروف وتكبل اندفاعك وتقتل استماتتك وتضعف تشبثك بالحياة..
مرحلة تدرك فيها أنك تغرق..
يضيع منك أنت دون أن تستطيع إنقاذه..
تفقد توازنك واتزانك..
تفقد القدرة على الصراخ في نفسك..
تنفذ طاقتك وتسقط عنك كما الحظ..
تدرك في معركتك أنك محاصر من خصم طالما أهلكته سابقا..
لكنك واع تماما أنه اليوم أكثر شراسة مما سبق..
يخيفك جدا تفوقه عليك رغم إدراكك وإرادتك ومكابرتك وإصرارك على المقاومة إلى آخر رمق في نفسك المحاربة..
غافلك وأنت منهك القوى من معاركك السابقة..
تجاهد للصمود..تجاهد للبقاء..لكنك غريق حقا..
تصارع لتتنفس..
تصارع لتبقى قيد الأمل..
الأمل، هذه الكلمة النبيلة المتعالية التي أجهضها الواقع وتركها مجرد سخرية جوفاء تخدر بها بؤسك وتؤجل فيها موتك..
تخشى البقاء وحدك..

تخشى أن تنفرد بك هزيمتك وتلقيك لوساوس تجهل أنها تقودك إلى حتفك انتحارا
تكف عن مطالعة المرآة..

تخشى ذلك الشبح المستلقي في عيونك..

ترغم شفتيك على ابتسامة جافة، توهم بها محيطك أنك قيد الحياة!

وأنت حقا ميت ممرغ حد حتفه في كبريائه..

يأبى حتى وإن قهر..

إلا أن يسخر باسما..

ويخسر واقفا..

ويموت واقفا..

ويدفن واقفا..

فالمحارب شهادته الموت مقاتلا في المعركة..

يسقط منك أثناء عبورك أشخاص ما تخيلت أن فطرة النسيان وسنة الحياة سيجعلانك تستمر دونهم، وإن صرخ مكانهم الشاغر داخلك بشوق جائع، تدعو لهم بالرحمة كلما تذكرتهم، وإن كانت شدة تعلقك بهم تعجزك عن تصديق أنهم فعلا غادروا دون عودة..

سقطوا عنك بمشاعرهم وحبهم ورعايتهم، ولن يعودوا أبدا! تشتاقهم..

تتأنق بنقصك مكابرة لتغطي ثقوب جراح فقدهم..

تنزف بابتسامة دسمة المرارة..

تشي بك عيونك الجائعة أنك يتيم فهل من كفيل!؟

تتمنى في سرك أن تستمر أرواحهم في رعايتك والاهتمام بك كي لا يقتلك يتمك دونهم..

تشعر بأرواحهم كأنهم يواسونك لغياب دعم الأحياء لك في أزماتك وانكساراتك..

يزورونك في حلمك كلما نسيتهم كي تتذكرهم بالدعاء..

تتمنى أن تراهم ذات حلم على استيقاظ!

تصبح صداهم كي يستمروا قيد الحسنات، لعل دعاءً منك ذات صدق وخشوع ينقذهم من عقاب..

تعتاد على الاستمرار دونهم..لا خيار لك غير الاستمرار، فلا شيء سيتوقف بوقوفك، غير أنت وأحلامك!

تجبرك غريزة البقاء على الاستمرار في معاركك، تارة منتصرا وغالبا منهزما، تفقد صبرك، تحط عتاد مقاومتك، لتصرخ وتشتم، لتتذمر وتحزن..

ركضك المجنون ولهفتك للوصول إلى نقطة الحصاد وإيمانك المتذبذب، ينسوك أنك في حماية القيوم الذي لا ينام عنك أو عن سواك..

يحفظك من اصطدام لا تراه..

لأنك تخلفت عنه ذات تأخير..

أو تجاوزته ذات استعجال..

يقيك عمل صالح من ابتلاء يفوق مقدرتك..

تحميك صدقة مستورة من التفجع في قريب..

لهذا عليك أن تستمر في حياتك دون قلق..

أنت فقط مطالب بالقلق على إتقان ما أنت مكلف بإنجازه وامضي في دربك مطمئنا، لأن لك ربا يحميك، لن يتخلى عنك حيا كنت أو ميتا..

أنت في رعاية الرحمان الرحيم فلا تخش عراقيل حياتك..

العراقيل وجدت لتتجاوز وتقفز!

- وأخيرا، سأشرب فنجان قهوتي بهدوء، سأشعر بتجولها في شراييني..وصعود الكافيين لصدغيّ النابضين بالصداع، يا فرحتي..انتهت العطلة..وعادت المدرسة!

اقتربت من النافذة المفتوحة، لتطل على باب العمارة وتتابع ببسمة فخر زوجها وأطفالها الثلاثة المغادرين إلى المدرسة، رفعوا رؤوسهم جميعا ليلوحوا لها بحب حزين، لاعتيادهم دفء البيت وحرية اللعب ومصاحبة الصخب.

رفعت يدها تبادلهم التلويح بحرارة أكبر، حرارة لأنها ستشتاق إليهم، وحرارة لأنها ستنعم بهدوء شبيه بهدوء المدن الكبيرة أيام عطلة عيد الأضحى، حينما يغادرها كل الوافدين والمهاجرين من أجل العمل، ستنعم الشوارع العصبية في دماغها بحركة سير خفيفة أو شبه منعدمة لمدة تسع ساعات في اليوم! ستتجول في سكونها بسلام..

ما أجمل لحظات الصمت بعد صخب!

سرحت في السماء الصافية بانتعاش وتنفس عميق، قبل أن تتأمل حديقة العمارة الجميلة المعتنى بخضرتها و ورودها ونافورتها النائمة و المتنكرة نهارا، والتي يروق لها ليلا استعراض ألوان مصابيحها الملونة كأنها في عرض أضواء، لتتألق بسحر مصطنع كغيورة لئيمة من النجوم اللامعة بوهج رباني في سقف السماء الأسود، تستفزها كنِدٍّ هزيل مضحك لتتوهج في العتمة أكثر!

صوت إبريق القهوة على النار أوقف سيل أفكارها لتطلق شتيمة مكتومة، رفعته وعيونها المستاءة تراقب عيون النار التي تلوثت بفيضان القهوة الكريمية بحليبها ورغوته الفاتنة الهاربة على أديم فرنها النظيف واللامع.

استمرت شتائمها غير المفهومة، أسرعت إلى منديل مبلل كي تمسح رغوة القهوة على سطح الفرن، قبل أن تتكون طبقات ملتصقة تسود بحرارة النار والتقادم والإهمال، تزعج عينيها العاشقة لبريق النظافة الملتقط عند كل نظرة تفقدية تنشد استحسانا ذاتيا لعملها كربة بيت.

جلست أخيرا ترتشف قهوتها وتتصفح حسابها على موقع التواصل الاجتماعي الفايسبوك من هاتفها..مع نهاية قهوتها أغلقت حسابها وتركت هاتفها في الشاحن، لتقوم بجولة سريعة اعتيادية لتنظيف الشقة وترتيبها.

برمجت آلة الغسيل الأوتوماتيكية على نظام التشغيل المناسب..

مررت يدها بحنان على آلاتها التي تغلفها برداء جلدي لتحافظ على أناقتها ونظافتها ونجاعتها، هي أعز قطع الأثاث لأنها تنقذها من أكوام الغسيل اليومي، هذا النوع من الاختراعات يشكر عليها أصحابها دون حساب، لأنهم قدموا للبشرية خدمة جليلة، خصوصا للنساء، لأنها وفرت عليهن الوقت والجهد مع أنهن جميعا في جشع مشروع لابتكار آلة أخرى تتكفل عنهن بنشر الغسيل وطيه!

انتهت من إعداد وجبة الغذاء لتجلي الأواني وتنظف المطبخ وأرضيته.

رن هاتفها برسالة على الواتساب، إنه تسجيل صوتي من زوجها..

- لن أعود لأجل الغذاء، لدي عمل متأخر.

تأففت بحنق..

- مؤخرا كثرت الأعمال المتأخرة!

مددت جسدها على الأريكة في غرفة الجلوس لتريح أقدامها من تعب الوقوف، أغمضت عيناها تهيم في أحوال زوجها التي تغيرت.

ما يوجع قلب المرأة أن يقتل الاعتياد شغف زوجها بها، تصبح مألوفة له لدرجة يتوقف عن بذل أي مجهود لإرضائها، بل يبالغ في الهرب منها ومن البيت كي لا يذكره ذبولها بإهماله، هذا إن لمحه في أفضل الحالات!

لأن غالب الأزواج تموت زوجاتهم جوعا لاهتمام قيد أعينهم دون أن يشعروا بذلك، لانغماسهم الحثيث في الاهتمام بأنفسهم ونزواتهم!

انتهت الدورة الأولى بسلام مع نتائج مستحسنة للصغار.

ومع بداية الدورة الثانية، لاحظت شحوبا غير معتاد على وجه زوجها فؤاد، وتوترا ملحوظا في تصرفاته، يغضب لأتفه الأسباب، يتذرع للصراخ والشجار، كالمبغض الكاره لنفسه.

توقفت عن معاتبته، لم تعد تسأله الاهتمام، استنفذت صبرها ويئست من عودة فؤاد الذي أحبت.

أما الذي تراه اليوم، فقنبلة موقوتة من السلبية والهياج والسخط، تنفجر في وجه كل من يصادفه ويحادثه، يصرخ مع الجميع ويتشاجر مع الجميع، كأنه فقد السيطرة على إنسانيته ليتحول إلى شخص مقيت لا يحتمل..

حتى باتت تتجنب مرافقته في السيارة، لكثرة خصوماته مع كل سائق زل وحاد، أحيانا يطول الشجار ليجذب انتباه المارة التي تتجمهر فضولا، تتعرق

إحراجا في كرسيها المجاور له، تستعطفه التوقف والمغادرة، فما يزيده ذلك إلا حنقا واستعراضا لحماقته التي تسقط عنه هيبته كرجل!

فالمرأة تعشق الرجل الذي يجعلها تفخر بسيطرته على كل المواقف بشكيمة و حكمة وتروٍّ، لا ذاك الذي يجعلها تخجل به لانكساره بخساسته ورعونته وطيشه!

تحرص على القيام بكل واجباتها في البيت، كي تتفادى الاصطدام بملاحظاته اللاذعة التي تنتهي دوما بمناكفة تسحب منها طاقة الصمود والاستمرار من أجل أطفالها.

طردته من تفكيرها، تناولت جهاز التحكم لتغير قناة القرآن بعد توقف التلاوة.

قامت بجولتها اليومية السريعة على المحطات الإخبارية لقراءة الشريط الهارب أسفل الشاشة..رغم أن العناوين البارزة المتكررة مفسدة لشهية الحياة..استشهاد..اغتيال..انفجار عبوة ناسفة..قتل..هجوم إرهابي..بناء مستوطنات جديدة..تفكيك خلية إرهابية..اختطاف..إصابة!

رغم بؤس الأخبار إلا أنها رغبت في البقاء على اضطلاع دائم بما يحدث حولها..فمن السيئ في وقت تحول فيه العالم إلى قرية صغيرة أن تنأى بنفسك وتجهل ما يحدث على مقربة منك!

آخر الأخبار التي شغلتها، الظهور المقلق لفيروس جديد "فيروس كورونا المستجد" في مدينة "ووهان" الصينية في أواخر سنة 2019، وانتقاله إلى إيطاليا وكل أوروبا.

شعرت بخطر قادم..خصوصا مع تزايد انتشاره العالمي في بداية هذه السنة 2020، لطالما ظهرت فيروسات فتاكة على مر السنوات، لحسن الحظ كانت تسجل إصابات قليلة في المغرب، لكن متابعتها للفيروس التاجي "كوفيد 19" من هاتفها ورؤية الفيديوهات المسربة من الصين وإيران وإيطاليا أنبأها بقدوم الكارثة!

أراعها عدد الضحايا وهول الجثث المكدسة، خصوصا بعدما تابعت خبرا يشير إلى أن دولا كثيرة أخفت حجم خسائرها وضحاياها..

أفزعها ما شاهدته من تسجيلات لضحايا صينيين تساقطوا في الشارع كأوراق خريفية..يصرخون دون أن يساعدهم أحد، أشخاص أقفل عليهم في منازلهم أو أرغموا على مغادرته سحبا إلى المستشفيات المكتظة حتى آخرها!

مما حث الدول على إنشاء مستشفيات ميدانية لاستيعاب أعداد الإصابات التي تتزايد كل يوم، تابعت تراكضهم المسعور إلى المحلات التجارية للحصول على المؤونة، كان الأمر أشبه بنهاية مرتقبة للعالم، رعب لم تختبر مثله من قبل، حتى أجهدت أعصابها وهي تترقب وصوله إلى المغرب الذي لم يقفل حدوده رغم انتشار الفيروس في أوروبا المجاورة، ومع تسجيل أول حالة في المغرب مع بداية شهر مارس في سنة 2020، أدركت أن الخطر على مشارف أقدام!

وقبل أن يعلن الحجر الصحي الكامل في المملكة في منتصف شهر مارس، كانت جليلة قد تبضعت كل ما تحتاجه لشهرين أو يزيد، وصلت حمى الخوف إلى الجميع، شهدت بعض المدن إقبالا حاشدا على محلاتها التجارية الكبرى..

عصفت المخاوف بطمأنينتها، خوف من ادخارهم المتواضع جدا، خوف من الغد المجهول الذي يبدو ككابوس مخيف، العالم كله يعاني، البشرية مختفية خلف كمامات، مدن ودول أقفلت بالكامل..رعب لم يتم مشاهدته إلا في الأفلام الهوليودية..

كل ما يحدث اليوم أمامها، يبدو كحلم موحد تعيشه الأرض دفعة واحدة..

وستستيقظ منه ذات يقظة!

لكنه ليس حلما..

إنه واقع جديد للبشرية..

إنها بداية المأساة للطبقات الهشة والمعوزة جدا دون الحاجة إلى أزمة وباء تلفظها إلى الدرك الأسفل من الشظف..

إنها بداية تحول الإنسان إلى سجين حر في بيته، لتزوره الحيوانات التي بتوقف الحركة البشرية خرجت تجول بحرية شوارعه الخالية المحظورة عليه!!

كأن الحيوان في حديقة إنسان!

بعد مرور ثلاثة أشهر انتهى الحجر الصحي..

دون أن تعود الحياة إلى مجراها..

دون أن يعود فؤاد إلى عمله كممون حفلات..

ودون أن تنتهي مأساتهم، بل كانت لها بداية جديدة!

تفاقمت الضغوطات ليتكرر هروب فؤاد من البيت، كي يوهم نفسه بانشغاله..

يهرب من واقع أنه تحول إلى عاطل دون عمل أو مورد، بل معتمد على الاقتراض لإعالة أسرته..

في صبيحة يوم أحد، خرج فؤاد رفقة ابنته سارة لزيارة والدته في ذات مدينتهما، أما جمال وجلال فكانا منهمكين في إنجاز واجباتهما المدرسية.

انشغلت جليلة كالعادة في تهيئ وجبة الغذاء الذي جهز دون أوبة فؤاد وسارة.

بلغها تسجيل صوتي من فؤاد على تطبيق خدمة الرسائل الواتساب، أخطرها فيه باقتضاب "لن أعود للغذاء، سارة معي، لا تنتظرينا!"..

لم تفاجئ، فتلك أضحت عادته..تناولت الغذاء مع ولديها، لتنشغل في غرفة الجلوس بطي الملابس وترتيبها في الدولاب.

فور انتهائها انضمت إلى ولديها لمراقبتهما في تأدية واجباتهما المدرسية..جلال أتم سنته العاشرة وهو في المستوى الخامس ابتدائي، وجمال تجاوز سنته الثامنة ويدرس في المستوى الثالث ابتدائي..

أما سارة الصغيرة فأنهت سنتها الرابعة وهي بعد في سنتها الثانية من المستوى التمهيدي، جميعهم توقفوا عن التعليم الحضوري بسبب خوف والديهم من التقاط عدوى الوباء، فاختاروا التعليم عن بعد رغم إكراهاته وضغوطاته وسلبياته الكثيرة، لكن سلامة الصغار فوق أي اعتبار.

إثر انتهائهما من تمارينهما، انتقلا إلى غرفة الجلوس لمتابعة رسومهما المتحركة المفضل، استلقت قربهما تتأملهما بحزن عميق، لا تعرف مآل أسرتها تحت ظل هذا الوباء!! ندمت على حلمها الذي تخلت عنه، لكان أنقذها من هذا التوجس المنهك من مصروف اليوم والغد، وإحراجها المتعرق كلما اتصلت بأخيها من أجل استدانة جديدة!

أجبرها التعب على الاسترخاء في إغفاءة خفيفة..

رأت سارة بين ذراعيها، تحضنها وتدفن رأسها في صدرها، فجأة تبخرت من بين ذراعيها، التفتت تبحث عنها بجنون وتصرخ باسمها، قبل أن تعثر عليها خلف نافذة زجاجية، سارة تصرخ ماما، وجليلة تجاهد بخطواتها الثقيلة وفمها المشلول الركض خلف تلك النافذة التي تقصى بابنتها بعيدا..

أيقظتها برعب نغمة رنة هاتفها من ركضها المخدر في عيلولتها..الحمد والشكر لله إنه مجرد كابوس!

كم تكره النوم بعد صلاة العصر! تكره فقدان الذاكرة الغبي الذي يليها،

تفقد إحساسها بالوقت والوعي، تكتسب منه فقط المزاج السيئ والجسم المعتل والصدر الضيق.

قبل أن تستعيد تركيزها توقفت رنة الهاتف، بنظرات ناعسة لمحت جلال وجمال يشاهدان بعد التلفاز، لم تنم كثيرا إذن!

تطلعت إلى شاشة الهاتف، إنها حماتها..

ارتشفت كأس ماء بارد ليساعدها على الصحوة من خمول العيلولة ، أعادت الاتصال بحماتها..

- مرحبا خالتي بديعة، كيف حالك؟

- بألف خير ابنتي جليلة، هل أنت بخير والصغيرين؟

- الحمد والشكر لله خالتي، لا بد أن سارة أزعجتك بفوضويتها وقت الغذاء!

- الغذاء؟ لا لم يتناولا الغذاء، اتصلت بفؤاد عدة مرات، لكنه لا يجيب.. نسي بعض الأغراض التي جمعتها لأجلك والصغار!

دق قلبها بعنف، وارتفع منسوب التيقظ والحذر..

- خالتي.. فؤاد وسارة لم يعودا منذ مغادرتهما إليك!

تطلعت بسرعة إلى ساعة معصمها، إنها السادسة مساء..

- لا تقلقي ابنتي، لابد أنه في زيارة لشقيقته خولة، تعرفين استهتاره دائما، سأتصل بها وأطمئنك..

- حسنا خالتي..إلى اللقاء.

تحاول دائما تفادي الاتصال به أثناء خروجه خوفا من أن يكون خلف عجلة القيادة، فعصبيته المفرطة تفقده تركيزه، وفتيل غضبه جاهز للاشتعال كلما سمع صوتها!
شعرت بأحشائها تنوء وتموء، رن هاتفه أخيرا..انتقلت إلى غرفة نومها كي لا تزعج الصغيرين.
انتظرت الثانية..الثالثة..الرابعة..خفق قلبها..الخامسة..العلبة الصوتية!
تأففت بصوت مسموع..
- كم أكره العلبة الصوتية!
أعادت الكرة..ذات الشيء..

اتصلت مرات كثيرة بفؤاد دون جدوى، وكل محاولة يزداد قلقها واضطرابها..

انشغل ذهنها بسبب تأخير زوجها فؤاد وطفلتها سارة، أمن المعقول أن يصدق حدسها ويكون الآن في وقت باذخ رومانسي مع عشيقته!

لأن تأخيراته وتبريراته الواهية تدق بشراسة أجراس الشك في مخيلتها..

لن يجرؤ على ذلك وسارة معه!

فتأخر الرجل دوما لا عذر له في مخيلة المرأة إلا امرأة أخرى غيرها!
شعرت بضيق شديد في صدرها، ضج نبضها مع ضجيج جرس الباب..

أمسكت برشاش التعقيم وقصدت الباب مسرعة الخطى لتوقف الجرس اللحوح، لا بد أنه نسي المفاتيح أو سارة نائمة بين ذراعيه!

فتحت الباب بلهفة، اندهشت لرؤية شقيقها جواد وزوجته نجاة، انتبهت لاضطراب جواد رغم اختفاء ملامحه خلف الكمامة، مد إليها يديه لترش له المعقم بعد أن جفف قدميه في المنشفة المبللة بالتعقيم في عتبة الباب، وذات الشيء قامت به زوجته..
حاولت أن تخفي القلق من صوتها وهي ترحب بهما، رغم حفاوة جواد المعتادة مع الصغيرين، أحست بشيء مختلف في صمت أخيها، كأنه فقد صوته قبل أن يطلب منها تجهيز نفسها والصغيرين، لأنهما سيرافقان نجاة زوجته إلى المنزل..صرخ الصغيرين بفرح وهما ملتصقان برجل خالهما الذي ربت عليهما بارتجاف..
- ستغادران مع الخالة نجاة..جدتكما تنتظركما بأطباق شهية..

زاد صراخهما وهما يتراكضان إلى غرفتهما لارتداء ملابس الخروج وتبعتهما نجاة لمساعدتهما..
سرت في عروقها رعشة هلع باردة أصابت جسمها بالقشعريرة..
- ماذا هناك!؟ هل حدث شيء لسارة!؟
تجنب النظر إليها وهو يتظاهر بالبحث في هاتفه..
تجمدت الدماء في شراييها، بصعوبة رفعت بصرها المشوش إلى أخيها وقد ابتلع حلقها صوتها..
- أخبرني..ماذا حدث لهما!؟
- لاشيء..ارتدي ملابسك بسرعة، سأشرح لك في الطريق، دعيني أجري مكالمة مهمة..
تطلع إلى الباب كأنه منفذه الوحيد ليلوذ منه فرارا من مواجهتها الحتمية، تصنع الاهتمام بمكالمة واردة ليخرج مسرعا في انتظار التحاقها به..
ارتدت ملابسها بذهن غائب، حملت حقيبتها والمفاتيح وأسرعت في إقفال الباب، فنجاة غادرت قبلها بالصغيرين..
لم تجد نجاة وولديها مع جواد، فأبلغها جواد وهو يفتح لها باب السيارة بجانبه برفق..
- لقد أخذتهما نجاة إلى منزلنا..
اتخذ مكانه أمام المقود ليغادر على عجل..
توسلته..
- أخبرني أرجوك!!
ابتلع ريقه بصعوبة..تبا..لم يكن مستعدا لموقف كهذا! أسوأ ما في الخبر السيئ، كيفية تبليغه وضغط أعصاب من سيبلغه!
- فؤاد تعرض لحادث بسيط وهو في المستشفى!
صرخت برعب..

- يالله!! وطفلتي سارة أين هي؟
شحب وجهه بشدة..فقد كل قطرة حياة..
- لا تقلقي، هي أيضا بخير!
محركات سفينة مهترئة دوت في رأسها..غشاوة ضبابية حجبت شحوب أخيها وهي تتلمس الفراغ بيديها..
- أنت لا تكذب صحيح!؟
كذب بخفوت..
- الحوادث لا تحتمل الكذب..
توتر مع حركة السير البطيئة، هاتفه لا يتوقف عن استقبال الرسائل التي يجيب كتابة بسرعة على بعضها..
شكر وجود الكمامة التي ابتلعت كل وجهه إلا عينيه..
التفت إلى جليلة، لم تشعر بالتفاتته، كانت بالغة الشرود تماما..
توقف الزمن في ذاكرتها، قلب أمومتها ارتجف وبكى، شعرت أن طفلتها ليست بخير أبدا!
وجمت بشدة، تمنت أن يكتظ الطريق أكثر بالسيارات والقطارات والمترو، وأن يستعينوا بالمدرعات وكل شاحنات الجيش كي لا تصل إلى حيث سيذبح قلبها، تنوح بصمت، نعم سيذبح قلبها من الوريد إلى الوريد!
لو كان فؤاد بخير لهاتفها، لو كانت طفلتها بخير لأخبرها حدس أمومتها الذي ينزف بصراخ! إن سارة تبتعد في نافذتها الزجاجية، لا تريد الوصول..لا تريد!
ترجل جواد من سيارته أمام المشفى..استيقظت من شرودها وهي تنزل بلهفة لتفاجئ بوالدتها وشقيقتها هناك..
رعب قفز إلى كل جوارحها، اختل توازنها فتمسكت بذراع شقيقتها جميلة..
- من منهما مات!؟

صمت الجميع..عيونهم الحمراء المتورمة عجزت عن الكذب..وشقيقها يكابد بعد..

- إنهما بخير..إنهما في الداخل معا..

تشوشت رؤيتها وتخدرت ساقيها..عجزت عن الخطو وجسدها يستسلم لجاذبية الأرض..تلقفها جواد الذي فقد سيطرته على مكابرته، لينهار بكاء وهو يضمها إلى صدره..

- كان الله في عونك أختي..إنا لله وإنا إليه راجعون..عوضك الله صبرا عنهما!

من نافذة تلك العتمة السوداء التي أوشكت على ابتلاعها امتد إليها ذاك الصوت الحزين..

- إنا لله وإنا إليه راجعون..عوضك الله صبرا عنهما!

تيبست شفتاها..جف ريقها..جاهدت لتعود..تنصلت من الضباب والشلل وهي تلوك لسانها الثقيل..

-هل ماتا معا!؟

ارتفعت شهقات أخيها لتختلط مع شهقات أمها وشقيقتها..سمعت صوت والدتها المؤمن المتظاهر بالقوة لأجلها..

- أنت مؤمنة ابنتي..الله أحبهما معا..إنهما شهيدان!

لم لم يأتي الجيش كله بعتاده كي يؤخر وصولها إلى هذه الدرجة المفزعة من الوجع الذي اغتال مقدرتها على الاحتمال!

بما تبقى من صوتها الممزق أطلقت صرخة مدوية قبل أن تبتلعها العتمة..

شيء ما يخبرها أن تضيع أكثر في ذلك الظلام، يطاردها صوت نحيب يزعج هروبها، يناديها لتمسك بتلابيب صوته ليحملها إلى النور، كتلة صراخ ثقيلة تجثم على صدرها، ترغب في إطلاق العنان لحبال صوتها، إنها مشدودة إلى الشلل، الصوت الباكي ذاته قريب، تعرفه..ترغب في ضمه والبكاء..

لم عليها أن تبكي!؟، تلك الكتلة في صدرها ترغب في التخلص منها شلالا أو دما أو قيئا..إنها تخنقها..تلتهم أحشاءها وحبالها الصوتية..وتغرقها أكثر في العتمة السوداء الصماء.

- عودي ماما..لا تتركينا..نحن في حاجة إليك..

متى تركت أحدا يحتاجها!؟

ارتعشت أحاسيسها، استجاب قلبها الجريح لهذا الصوت الطفولي..تراجعت خطواتها من العتمة..

التفتت حيث الصوت، لا ينفع الهروب..لا يمكنها التوغل أكثر في هذا السواد، عليها أن تواجه ما تهرب منه..عليها أن تعود إلى ذلك الصوت الذي جعل مشاعرها تسبح لتتخلص من جاذبية العتمة..تحتاج الوصول إلى نور الصوت اللجوج الذي يسحبها بتوسله..

- إنها تستيقظ!

شعرت بجسد صغير دافئ يرتمي في حضنها، يتمسك بها كغريق مرتعب قدم له طوق نجاة..

- لا تتركيننا أنت أيضا ماما!

من تركهم غيرها!؟

- إنا لله وإنا إليه راجعون..عوضك الله صبرا عنهما!

قفزت العبارة لتقتحم ضبابية نظراتها وذهنها اللذان هاجمهما الصفاء دفعة واحدة..

تحررت حنجرتها من الشلل..لتصرخ..

- طفلتي..سارتي ماتت!! فؤاد! يا وجع قلبي، يا جوهرتي الوحيدة!

انتفض الجسد الصغير الملتصق بحضنها..انتبهت له..لهما..إنهما جسدان..طفلاها جلال وجمال..تشبثت بهما بكل ما أوتيت من قوة وفمها مندس بين كتفي صغيريها كي تخنق صراخها ولا ترعبهما..

أزعجتها إبرة المصل المغروز نصلها في ظاهر يدها كما خنجر هذه الفجيعة..
- صبر الله قلبك صغيرتي..قلبي موجوع لأجلك ولأجل طفلتي وزوجك..
يد أمها الحانية مع صوتها الممزق ربتا بحنان على صدمتها المؤلمة..
- منذ متى وأنا هنا؟
- طيلة الليل..إنه الصباح..
- أريد أن أعرف تفاصيل الحا..
قاطعها صوت امرأة تصرخ في الرواق خارج غرفتها..
- ابنك قتل ابنتي..فليحترق في الجحيم!
سمعت صوتا تعرفه يجيب..
- أرجوك ليس هنا..أرملة ابني مصدومة لا تحتاج إلى صدمة أخ..
قبل أن تحاول استيعاب ما قيل، فتح الباب بعنف، اقتحمت الغرفة سيدة مجهولة مهتاجة تقطر سما، ملامحها مشتعلة بالغضب والشر، وجهت الحديث بسبابتها إلى جليلة كأنها تطلق عليها رصاصة قناص يعرف هدفه بدقة..
- زوجك ارتاح الآن بعدما قتل ابنتي الوحيدة وأخذها معه..قتل وحيدتي..مدللتي!
أشفقت عليها لا بد أن المسكينة جنت من صدمة ما..
فالصدمات تمزق الشعرة الرفيعة التي تفصل بين التعقل والجنون..
رأت الخالة بديعة والدة زوجها تمسك بالسيدة وتحاول إخراجها من الغرفة، التي سرعان ما اقتحمها رجلا أمن المشفى، وسحبا السيدة
إلى الخارج، استفزها ذلك السحب أكثر، تلوت بين أيديهما كثور هائج، وهي تصرخ بجنون هز جدران الغرفة، لمعت عيناها بشرارة انتقام ملتهبة بعدما رأت تساؤل عدم المعرفة في وجه جليلة الشاحب..

- ألم يخبروك أن زوجك اللعين فؤاد مات في حادث مع ابنتي الحامل منه ومع ابنتك..تختبرين الآن مثلي وجع فقد الابنة!
ضحكت برضا وهي ترى الموت الأزرق زاحفا إلى وجه جليلة، والشحوب القاتل في ملامح أمها وأم زوجها وصدمة طفليها..كانت كقنبلة هيروشيما، لم تذري ولم تذر، تركت حطاما أكثر من الحادث نفسه..
انتفض جسد جليلة..جحظت عيناها وهي تحرك رأسها في حركة مستميتة للتنفس..
لحسن الحظ دخل الطبيب مع الممرضة بعد الضجة التي حدثت في غرفة المريضة..طلب بحزم من الجميع مغادرة الغرفة و أسرع في مساعدة جليلة على التنفس..
إنها موجة كبيرة صفعتها بقسوة وكورتها إلى أعماقها وهي تلفها في زبدها الثائر، جاهدت لتصعد إلى السطح وتتنفس، ما كادت تفعل حتى غافلتها موجة أخرى أشد شراسة وألقتها إلى قعر مظلم..

كم تمنت أن تطول تلك العتمة، أن يطول ضياعها المريح قبل أن تعود إلى ضياعها الموجع والعاصف بالأخبار الصادمة..

هل ما قالته تلك السيدة صحيح؟!..

هل زوجها مات رفقة عشيقته الحامل؟!متى كانت له عشيقة دون علمها؟ ومتى أثمت هذه العلاقة عن خطيئة!؟

كيف يجرؤ على ذلك وطفلته معه!؟

ألهذه الدرجة فقد احترامه لأسرته؟، ألهذه الدرجة امتهن العقد الشرعي بينهما !؟ أبهذه الطريقة البشعة انفرط عقد المودة والرحمة بينهما،

كيف له أن يفجع أسرته بهذه الفضيحة المدوية التي سيلوكها الوشاة دهورا طويلة!،كيف لصغيريها أن يكبرا مع عار والدهم!؟

كذب من اعتقد أن العار لصيق بالنساء فقط..

بل يجلبه حتى الرجال ويلتصق وبهم، لأن العار عار..لا جنس له!

وحدها المصائب تتضامن مع بعضها لتأتي تباعا ودفعة واحدة..
دون إنذار أوإخبار..
كموجات البحر المنفلتة من الخريف قبل نهاية الصيف..
تثور على هدوئها وتبشر بتوتر الفصل القادم..
تغافلك واحدة تلو الأخرى..فإما أن تنجو بفضل الله ثم بفضل ذراعيك، أو تسحبك لتمرغك في رمل القعر وترقص بتياراتها الرشيقة والملتوية على إيقاع شهقات اختناقك وغرقك..
ما هذه الموجات الشرسة من الأخبار!
كيف لها أن تعصف فجأة بنمط حياتها الرتيب؟!أما كفاها إعصار كورونا!
ما تكاد تقف في وجه الموجة الواحدة حتى تعصف بها التالية..
فقدان صغيرتها حطم مخزونها من الحداد..
جعلها ترتفع بحزنها عن خسارتها لزوج خائن.
فالأمومة عند المرأة تطغى على ما دونها..
لذلك في الغالب المرأة بأولاد قد تصبر على زوج لا يحتمل كي لا تخسر أطفالها أو تشردهم..قد تصبر لضياع حقوق أنوثتها وكرامتها كامرأة، لكنها لن تصبر أبدا على ضياع حق أمومتها..
الأصعب على الوالدين قيد حياتهم فقد أحد الأبناء، يفقداه دون أن يغدقا عليه الكافي من الاحتضان والمحبة والرعاية..

حزن ابنتها فاق حزنها على فؤاد!
من الساخر جدا أنها قيد حياة زوجها حاولت جاهدة أن تعرف سبب تغيره وسوء معاملته، حاولت أن تفهم..استماتت لمعرفة الحقيقة..
هذه الحقيقة التي استشعرها حدسها، لكن الوقائع كانت كريمة جدا في بخلها لتمنع عنها الدليل المادي الذي يثبتها، واليوم هاهي ذي ذات الحقيقة، تعرض نفسها عليها بعد موته، فجة دون مساحيق و دون أي مجهود منها!
تلك الحقيقة التي كانت تبحث عنها سابقا كجرعة ماء لحياة ظامئ..
تحولت اليوم إلى حقيقة مهلكة كلسعة أفعى لا هي تتركك لعافيتك ولا هي تسلمك لموت رحيم!
هي فقط حقيقة شهية على موائد نميمة كل من كان يعرفهما..
هي حقيقة في ثوب فضيحة تجذب ذباب الغيبة والنميمة..
وتجذب نظرة الجارات المشفقة إلى شقتها التي أصبحت كالمهجورة بعدما كانت تضج بالحياة..
تماما كما الحياة خارجا التي ارتدت الكمامة ولبست الحذر، وأقفلت محلاتها وخلت شوارعها من الأسراب البشرية..
عجيب تصريف القدر!..كيف لحادث زوجها أن يسفر عن تأكيد إصابته بوباء كورونا من خلال التشريح الطبي الذي أظهر تلفا كبيرا في رئتيه، وكان مهددا بالموت في الأيام القادمة!؟
وذات الشيء انطبق على عشيقته التي كانت أيامها أقل، مما يرجح انتقال العدوى منها..
خبر إصابته بالفيروس أربك الجميع..وعرض جميع مخالطيه لإجراء الفحوصات والتحاليل..وثبت إصابة كل من أمه وأخته وزوجته بالفيروس!
والدته حاليا في الإنعاش في حالة حرجة، وشقيقته خولة وهي تعانيان الأمرين في العزل المنزلي..

إلى حدود الساعة لا تصدق أنهما ماتا حقا!
منذ أن غادرا صباحا، غادرا من غير رجعة، لن تراهما مرة أخرى!
كانت رسالته الصوتية " لن أعود للغذاء، سارة معي، لا تنتظرينا! " غير دقيقة وكاذبة وأخيرة..
كان لن يعود أبدا!
كم كان قاسيا "لا تنتظرينا" ما أوجعها!؟
ستظل مسكونة بانتظارهما تترقب الباب..
لم لم يخبرها أنها الأخيرة!؟
لم تر حتى جثتهما لتتأكد أنهما ماتا فعلا!؟
دفنوهما قبل أن تستيقظ..
ولم يسمحوا لأحد برؤيته..لأنه حامل للفيروس..وخضع كما سابقيه لبروتوكول دفن المصابين..
طاقم طبي أبيض مغلف تماما لا يظهر منهم شيء، لا تعرف إن كانوا أرضيين أم فضائيين، أخبروها أنهم من تكفلوا بدفنهما مع حضور صديقين لزوجها وزوج أخته وشقيقها جواد، صلوا عليهم صلاة الجنازة في تأبين صامت موجع..
أخبرتها والدتها أنها رأت سارة..
دون أي كدمة أو جرح..
فقط نزيف دماغي داخلي أودى بحياتها دون ألم..
ماتت أثناء الحادث..
كانت ملاكا ناعما تفيض جمالا وعذوبة..
أحبها الله..فأخذها..
كم بكت حينها..
حرمت من ضمها..

من مرافقتها في ليلتها الأولى في القبر..
تنهدت بصعوبة من وسط أنفاسها المضغوطة في صدرها..
منذ أسبوع وهي تخضع للحجر الصحي في شقتها..أخذت والدتها طفليها الذين ثبتا خلوهما من الفيروس..وكذلك أسرتها التي نجت من العدوى وشكرت الله لأجل ذلك، كانت بالغة القلق من أن تكون نقلت الفيروس إلى والدتها التي لن يحتمل جسدها هذا الوباء..
تتحدث إليهما بالفيديو من الواتساب كلما سمح لها تنفسها بذلك..
كل يوم يأتي شقيقها ليطرق باب شقتها، ليترك لها وجباتها اليومية التي تعدهما والدتها وشقيقتها وزوجته..
ما أقساها الأيام الأولى!
ما أطوله توقيت لياليها الصامتة!
وحدتها تمددت بكسل كأنها تسخر من أرقها ومرضها..
تتجول في شقتها الصامتة الفارغة كروح تائهة..
تبكي طفلتها ما شاءت..
تمسك بملابسها لتشم رائحتها دون جدوى، فأنفها محتل من كورونا..
تتحدث إلى صورهم كلما زارت غرفتهم..
تندب حظها العاثر مع فؤاد العابث متى تذكرت!
تتقلب في سريرها كأنه صفيح ساخن، صداع رأسها لا يتوقف، كل مفاصلها تؤلمها..
تتوق لتذوق قهوتها، تمر على عطورها لعل شذاها العابق ينفذ إليها، حتى الروائح الكريهة تمنت شمها كي يعود إحساسها بالروائح والنكهات!
تتقاذفها الذكريات ذات اليمين وذات اليسار..
تعود إلى سنوات زواجها لتسرح فيها، التي مرت عليها 12سنة قبل أن تترمل..

صحيح أنه كان زواجا مدبرا بين الأهل، فحماتها اختارتها في جنازة جدها..لكن مرحلة خطوبتهما شهدت نمو مشاعر رقيقة بينهما كبرت مع الأيام، اتسمت بالاحترام وتقدير كل واحد منهما للآخر..
ولأنها كانت من النوع الجدي الذي لا يكترث إلا للدراسة والكتب، كان جمال علاقتها الوحيدة وحبها الأول في سنواتها 25 ، التي حصلت فيها ذاك الصيف على الماستر في شعبة قانون الأسرة..

رسمت أحلاما كأجنحة تنطلق بها في سماء دراستها رفقة صديقتها نوال، جهزت للالتحاق بسلك الدكتوراه في تخصصها لتحقق حلمها كقاضية، اقتحامه حياتها غير مسارها، حيث أكد لها مقدرته المادية لكونه صاحب مقاولة لتموين الحفلات..ولشدة تعلقها وانبهارها بشخصيته الراقية التي لم تعرفها في غيره نسيت تعلقها بحلمها..

فالمرأة الحالمة حينما تجد الرجل الذي تقتنع بشخصيته تتغاضى عن باقي التفاصيل العقلانية التي تصبح لاحقا من الضروريات في الحياة الزوجية واستقرارها!

بعد الزواج تلاشى ذاك الرقي الذي راهنت عليه بكلها، ليتماوج أمام عينيها كسراب في عز القيظ، تركض إليه دون أن تلمسه أو ترتوي منه، أنجبت لتقرب المسافة، لكن ذلك ما زاده إلا مجانبة وإعراضا وغلظة وفظاظة..

نسيت معه أنها امرأة، فاكتفت بأن تستمر أما!

كم ترهقها هذه الذكريات التي استفردت بها في عزلها الصحي..

يلهيها هاتفها وبعض الزيارات من شقيقتها وشقيقها وزوجته في حديقة العمارة حيث تطل عليهما من شرفتها، تتحدث إليهم في الهاتف وتطل عليهم من الشرفة، ونجاة زوجة جواد أظهرت طيبة كبيرة في تحضير وجبات

تحبها.. تسأل عنها دوما بالهاتف وترسل لها الدعوات والكلام الطيب والمحفز والمبهج على تطبيق الواتساب..

ما أجمله هذا الدعم وما ألطفه، يمنحك مناعة لتحارب بشراسة من أجل الشفاء مع أنها منهكة جدا بصدمة الفقد والعزل المنزلي..

مع بداية الأسبوع الثاني وعلى الساعة السادسة مساءً سمعت جرس باب شقتها..
استغربت..من سيزورها دون أن يخبرها مسبقا في الهاتف!؟سبق وزارتها اليوم نجاة زوجة أخيها وجلبت كل ما تحتاجه ليومين..
تلك طريقتها مع أهلها..وحدهم في هذا الحجر الصحي من يزورونها خلف باب شقتها..لأنها تمنعهم من تجاوز العتبة..
فما تقاسيه مع أعراض المرض، يجعلها صارمة جدا في عدم نقل العدوى إلى غيرها!
وضعت عينها على عدسة الباب..طالعها وجه سيدة جالسة على كرسي..
لم تعرفها..مع أنها بدت مألوفة الملامح!
تراجعت مستندة على الباب..سألت بحذر..
- من أنت سيدتي؟
- مرحبا صديقتي جليلة..إنها أنا..صديقتك نوال أيام الجامعة!؟
خفق قلبها بقوة..أعادت عينها إلى العدسة لتتأكد.. فعلا إنها هي، مع اختلاف أنها فوق كرسي متحرك..
تسللت اللهفة إلى صوتها..
- آه صديقتي..كم اشتقتك!؟
- أنا أكثر..متأسفة جدا..وصلني ما حدث معك من إحدى قريباتي، اتضح أنها جارة منزل أهلك..

- كم بحثت عنك..ضاع هاتفي وضاع معه رقمك..كدت أجن..تأخرت في الأخذ بنصيحتك الدائمة..من يومها ما عدت أثق في الهاتف..كل الأرقام أسجلها في مذكرة لا تغادر البيت!

نوال معاتبة بخفة..

- ما عهدت منك سوء الضيافة..هل سنتحدث خلف حجاب!؟

شعرت بالخجل وهاجمها الشوق..

- لو تعلمين صديقتي..كم أتمنى عصرك إلى صدري، متعبة أنا وبشدة..أتوق لإخبارك كم أوجعتني الحياة!

- افعلي ذلك..افتحي الباب و اعصريني..لن أمانع..بي شوق مثلك!

تأسفت ببكاء..

-لا أستطيع صديقتي..أنا مصابة بكورونا وأخضع للعزل المنزلي..

-أعرف ذلك أيضا..ولا يهمني الأمر!

اندهشت بذهول..

-تعرفين أنني مصابة!؟وتريدين الدخول إلى شقتي!؟ لا أحد يفعل ذلك! الجميع يخشاك، ليس كأنني وباء..بل لأنني فعلا وباء!!

عادت لتطل من العدسة..ولتتأكد أن ما تراه حقيقي!

كانت صديقتها مبتسمة..وواثقة مما تقول تماما..لا يبدو عليها أنها تنوي الاستسلام أو المغادرة ولأول مرة تلمح حقيبة صغيرة بجوارها..

- يبدو أنك خططت لسفر طويل!

- نعم..أنوي الإقامة معك..ألم أعدك سابقا أني لن أتركك كلما احتجتني!؟

- أتمزحين!!

- ولم سأمزح!؟ألم أكن صديقتك وانقطع تواصلنا رغما عنا!؟

- نعم نحن كذلك..

ظهر الارتياح على ملامح نوال..

- إذن دوري كصديقة في محنتك مع الفقد والمرض أن أكون إلى جانبك..والله لحسن نيتي سيحميني..وإن عجزت مناعتي ونقلت إلي العدوى..فسيسرني أن أختبر ما تمرين به..وهذا ابتلاء لتطهيري من ذنوبي، مع أني أعدك سأحافظ على مسافة الآمان، وأعقم كل ما تلمسينه، كما أني سأساعدك في تسخين الوجبات وتنظيف البيت وفوق ذلك سأكون ونيستك!

انتشر الدفء في أوصالها..

لا بد أنها تحلم..

طرفت بعينها الملتصقة بعدسة الباب، ضعف حذرها من إغراء ما قدمته نوال من دفء الرفقة..لن تطلب شيئا أكثر من رفقة صديقتها التي أضاعتها لسنوات!!

انتبهت إلى الكرسي..ترددت..

- لا بد أنك تحتاجين للمساعدة أكثر مني..كح..كح

هاجمتها كحة جافة متسلسلة..

واحدة تلقيها للأخرى حتى ابيضت بشرتها وانقطعت أنفاسها..

وتكورت جاثية على نفسها خلف الباب..

جاءها صوت نوال القلق الملتصق بالباب..

- تنفسي بهدوء..املئي صدرك بالهواء..سأنتظر نهاية النوبة..سأنتظر فتحك الباب..

سمعت صوت لولب كرسي نوال وهي تبتعد عن الباب..

يا إلهي..كم اشتاقت إليها!!

ترغب في فتح الباب على مصراعيه لترتمي بين أحضانها، وتحكي لها كم ضاعت دونها..

امتدت يدها بلهفة إلى الباب..
لا تستطيع..
مسؤوليتها كمصابة ناضجة بالفيروس أن تحمي الجميع منها..وتستجيب بانضباط وحزم للتعليمات الوقائية..
- أرجوك صديقتي..لا يوجد لك مكان هنا في هذه الظرفية..حتى لو أردت ذلك أكثر منك!
- بل هذا هو مكاني وفي هذه الظرفية بالذات..
ابتسمت جليلة بحنين رغما عنها..
- ما زلت عنيدة كما أنت..يسهل إقناعك للناس..ويصعب إقناعهم لك..يا الله ما تراني أفعل!؟أنا أكثر منك شوقا وأحوج منك إليك..لكني أخاف عليك من نفسي..لو تعلمين صعوبة هذا الوباء..لا أعلم إن كنت سأرديه أو سيرديني..لا أريدك أن تخوضي هذه المعركة المنهكة!
- دعيني أنا من يقرر..ودعي قدري يجري مجراه..وقدري معك..أنت لا تعلمين الغيب..يمكن أن أكون معك دون أن تنقل إلي العدوى..كما يمكن أن أكون خارجا وتنقل إلي من حيث لا أعلم!
- على الأقل لن أشعر بذنب أني ناقلة العدوى!
ضحكت نوال بسخرية..
- يا لا نبلك صديقتي!! إن أصبت بالفيروس لن يهم إن كان منك أو من غيرك..هل تعتقدين أن الفيروس سيكون رحيما إن نقل إليك من شخص يحبك!؟ (ضحكت) الفيروس حبيبتي لا يعرف العواطف..ربما تقتله قوة العاطفة والتضامن..وأنا هنا لنقتله معا..
فتح الباب بسرعة لتسحبها يد من كرسيها ويد أخرى تجر حقيبتها، وبرشاقة أقفلت الباب بقدمها ووقفت خلفها لاهثة ومصدومة مما فعلت..

بدت كمجرمة تحت حكم إطلاق سراح مشروط، ممنوع أن تعبر باب شقتها وإلا ضج جهاز الإنذار المثبت في أقدامها بصوت يصم الآذان والجيران، وبفعلتها تعتبر خارقة لشروط سراحها ومهددة بالعودة إلى السجن..
وجليلة كان الباب مسافتها الممنوعة..
لم يسبق أن تجاوزته طيلة أسبوع..فقط تمد يدها لتحمل القفة التي يتركها شقيقها أو شقيقتها بعد مكالمة هاتفية ورن جرس الباب..
تقابلتا أخيرا...جليلة لا يظهر منها إلا عينيها الذابلتين....وجهها مختف تماما خلف كمامتها السوداء..
حملت المعقم لترش به مقعد نوال حيث أمسكته وعقمت ما جاوره..وكل الحقيبة
تمتمت باعتذار..
- عقمت يدي جيدا قبل أن أفتح الباب..هذا للأمان أكثر!
انتبهت لوجه نوال..
- لم لا ترتدين الكمامة نوال!؟
هزت كتفيها بلا مبالاة..
- تخنقني وتزعجني..ستقتلني قبل الوباء!
-كيف تسمح لك الشرطة بالانتقال دونها!؟ كم دفعت من غرامات 300درهم حتى الآن!؟
قهقهت نوال ضاحكة..
- ولا واحدة! يتعاطفون مع كرسي المتحرك، كما أنني لا أتنقل إلا نادرا.. كما الآن..
تأملت نوال بهو شقة صديقتها المتسخ والملابس الملقاة بإهمال..وصينية طعام الأمس تظهر فوق طاولة غرفة الجلوس..

دفعت كرسيها بيديها وهي تتجول فيما خفي من الشقة..تبعتها جليلة بإحراج..
- في العادة لست مهملة هكذا!
سمعت هأهأة نوال الصافية..
- كأني غريبة لا تعرف! أنا هنا كي أعيدك إلى نفسك..
- أنا ضائعة عن كل شيء..
- الضياع شيء جميل..فيه تكتشفين أشياء جديدة وممتعة..كأنك في بداية شيقة لا تعرفين دروبها أو خريطتها المسبقة، جهاز تحديد المواقع اللعين أفقدنا متعة الضياع والسؤال..
أتعلمين أنني أقطن في الدار البيضاء أكبر المدن المغربية..مع أنها كبيرة ومخيفة، إلا أني حفظتها عن ظهر قلب..مع ذلك تشعرني بملل شنيع..
لأني لا أضيع فيها..
أحب اكتشاف المدن الجديدة، كي أحلق دون خريطة أو محدد مواقع..
الضياع ليس كارثة..إنه اكتشاف لشيء جديد!
- ضياعي مختلف..
أنا في مدينة ترتدي الحداد..
دروبها مظلمة كليلة شتاء عاصفة قاتمة في مدينة كالبندقية العائمة في تيار كهربائي منقطع..
على حوافها فقد غريق..
مراكبها تهتز فوق موج دمعي الذي أنتجه حزني فائضا وزيادة..
استدارت إليها نوال وهي تتطلع إليها من رأسها إلى أخمص قدميها وتتأمل مظهرها غير المرتب والمزعج بألوان غير متجانسة..
- لم لا ترتدين اللباس الأبيض!؟ألست في عدة أرملة!؟

غمامة حزينة لمعت في عيني جليلة..والكمامة لم تسمح لنوال بالتقاط تعابيرها كاملة..
- ولم أرتديه!؟ لباس الأرملة الأبيض مجرد بدعة متعارف عليها في تقاليدنا المغربية، ليس له نص شرعي..في وقت الشهامة والرجال كان دعوة لمساعدة الأرملة وأيتامها، أما في يومنا الذي عزت فيه الشهامة وعز الرجال، أصبح مجرد دعاية مبالغ فيها للذئاب من الرجال كي يعلموا أنك صيد وشيك..ليشحذوا بنادقهم ويستعرضوا مهاراتهم كصيادين..المهم ألا أرتدي ملابس مبهرجة أو أتزين أو أتعطر..
- وهل تستطعين الوقوف في وجه التقاليد؟..سيعتبرك الجميع زنديقة ومارقة عن الدين..
- حاليا أعجز حتى عن الوقوف باتزان على قدمي..
أعجز عن الوقوف في وجه نفسي..
فكيف بخوض معركة خاسرة مع الناس ومعتقداتهم الراسخة!؟
منذ تزوجت وأنا في معارك ضارية..
تعبت..
نفذ مخزوني الحربي..
خسرت روحي مقدرتها الحربية..
فقط بي رغبة جائعة للنوم..
يطيب لي أن أفقد وعيي وحزني معا..
مع أن الكوابيس كريمة جدا معي..
صديقتي..أنا منهكة جدا!
- أنت في استراحة محارب فقط..
سترتاحين..
وسترممين صفوفك وتحفزين جيوشك للفتوحات القادمة..

ولا تنسي أن كورونا أنقذتك بعزلها الصحي..
لا أحد سيفكر في زيارتك ليسجل انضباطك بالتقاليد!
- أصبحت سيئة الضيافة..دعيني أعقم مكان جلوسك..لم أكن أنتظر زيارة!
التفتت إليها نوال بكرسيها، وهي تتبعها للصالون..
أوقفتها باحتجاج..
- لست ضيفة لترتبي لي مكانا في الصالون..أنا صديقتك..أريد حميمية غرفة الجلوس!
ابتسمت جليلة بمكر..
- لست امرأة تقليدية تنتقي أكبر الغرف لتؤثثها بصالون ثمين تنظفه كل يوم مع حظر تجول لكل أفراد الأسرة، المحشورين في باقي الغرف الصغيرة، في انتظار ضيف قد يأتي أو لن يأتي..صالوني أتركه ليلعب فيه أطفالي..يتراكضون فيه بشرط أن يجمعوا كل اللعب بعد انتهائهم من اللعب، وأن يحافظوا على نظافته وألا يتقافزوا فوق الأرائك، الزربية فقط مجال لعبهم مع حظر الأكل فيه..لذلك تنظيف بسيط مني يحافظ على رونقه وترتيبه!
رفعت نوال حاجبيها بتعجب..
- اممم..فعلا أنت امرأة غير تقليدية! لكني أفضل حميمية غرفة الجلوس..
غادرت جليلة الممتعضة الصالون..
- ذكريني متى أقنعتك بشيء!!
ظلت نوال مسترخية في كرسيها تراقب قوام جليلة النحيف المختفي في ألوان باهتة متنافرة وهي منهمكة جدا في رش المعقم على الأثاث والخشب والطاولة، تمرر ثوبا نظيفا مرة تلوى الأخرى..
وصلها ضحك نوال المكتوم..استدارت إليها مستغربة..
-ما الذي يضحكك!؟

-أنت ومن غيرك!!! تبدين بمعقمك كمحاربات الحشرات بمبيداتهن في الوصلات الإشهارية!
حركت جليلة رأسها بعدم تصديق..مع أن ابتسامة مستمتعة تمددت بكسل خلف كمامتها..
انتهت من التعقيم أخيرا بعد أن تأكدت أنها أعادت كل مكان أكثر من مرة!
همت نوال بالدخول..فأوقفتها جليلة بحزم..
- انتظري..لم أنتهي بعد..
أسرعت إلى الحمام لجلب المنشفة اليدوية المبللة بالمعقم والمعطر، لتمرره بسرعة على أرضية الغرفة العارية..دون أن تنسى تعقيم عجلات كرسي نوال!
ارتسمت الدهشة على ملامح نوال..لم ترفع جليلة نظراتها إليها..
- لا داعي لاستغرابك فقد كنت خارجا..وقد تحمل عجلاتك الفيروس لتصابي به، وتعتقدين أن العدوى انتقلت إليك مني!
أطلقت نوال ضحكة قوية..وهي تدخل إلى حيث أشارت..
- أنت مجنونة فعلا!!
في حركة مسرحية استعراضية..
- تفضلي سيدتي الملكة..مهجعك معقم وغير مسمم..(رفعت حاجبا بشر) لم تري شيئا من جنوني!!
تظاهرت نوال بالخوف لبرهة، قبل أن تقف من كرسيها وتخطو بخطوات ملوكية أمام نظرات جليلة المصدومة..ففسرت..
- بعد الحادث الذي تعرضت له، أجريت أربع عمليات على عمودي الفقري..وبمساعدة الترويض الفيزيائي استطعت الوقوف وحدي والمشي..لا أستطيع ذلك لمدة طويلة..

الحمد لله أن ظروفي المادية كانت جيدة تحملت فيها كلفة العمليات في مصحات خاصة، وإلا لكنت اليوم حبيسة كرسي المقعد، فالحياة اليوم صديقتي لم تعد ترحم متوسطي الدخل..
وكأن جليلة لا تعرف!!

شردت بنظرة حزينة وذكرياتها المنهكة تجذبها من جديد لتلقي بها على أعتاب بداية المأساة مع فرض الحجر الصحي الذي توقفت معه شركة زوجها لتموين الأعراس عن العمل، وحتى مع نهاية الحجر الذي امتد لثلاثة أشهر، استمرت حالة الطوارئ واستمر معها منع الحفلات والأعراس..

كان في ورطة سابقة بسبب ديونه لكن توقف العمل بسبب كورونا ضاعف حجم المشكلة لتنقلب حياتهم رأسا على عقب..

كثر تغيبه عن البيت، وزادت صراعاتهما عن حدها..

الثنائي الذي لم ينفصل أثناء ضغط الحجر الصحي، لن يفعل ذلك أبدا تحت أي ضغط آخر!!

بدأت أزمتهم مع وباء كورونا، تراكمت ديون مستحقات أشهر الدراسة في المدرسة الخاصة التي أظهرت جشعها الرأسمالي برفضها التنازل عن أداء الثلاثة أشهر المتبقية بسبب الحجر الصحي الكامل، وكالعادة وقفت وزارة التربية الوطنية وقفة المتفرج المستمتع، وتركت الأهالي في صراع مع أرباب المدارس الخاصة، حيث وصل الصراع إلى المحاكم، إذ رفضت الإدارة منح شواهد المغادرة للتلاميذ الذين توقف عمل أهاليهم بسبب وباء كورونا، دون أن يدفعوا المستحقات السابقة حيث حجت أفواج المهاجرين للمؤسسات العمومية..

تظاهرت المؤسسات الخاصة أنها تتفاوض مع الأهل من أجل حسم نسبة هزيلة ومخجلة تناهز المبلغ المخصص للنقل المدرسي الذي لم يستعملوه أصلا بسبب التعليم عن بعد..

تراكمت أيضا فواتير الماء والكهرباء، فالدولة سلمتهم لشركات أجنبية مفوضة مصاصة دماء لا ترحم، صدق محمد الماغوط حين قال" قراراتنا وطنية لكن قطع الغيار من الخارج"..انتهى الاستعمار ظاهريا لكن استمر استغلالهم الاقتصادي ببشاعة أكثر، بشركاتهم التي أنهكت جيب المواطن بفواتير خيالية دون مراعاة لمعانته ووضعه المادي المزري، ودون التحقق من العدادات لتبرير معقول للاستهلاك، فبعض المنازل أقفلت لسفر أهلها أو لاحتجازهم في القرى والمدن بسبب الحجر الصحي، الذي فرض قوانين صارمة للتنقل بين المدن، ومع ذلك صدموا بفواتير تفوق ما كانوا يستهلكونه أثناء تواجدهم بالبيت..

سخرية فظيعة واستهتار بالمواطن، وإذا انتفض واحتج لدى الشركة، رددوا له ذات اللازمة "سدد المبلغ أولا ثم ضع شكايتك في الإدارة"، الواجبات أولا وثانيا وتاليا، أما حقوقك فمهمشة حاليا!!

المواطن الهش ازداد هشاشة، تقهقر أشواطا إلى ما قبل البداية، تراجعت مكتسباته المادية، وهناك من فقد حتى مكتسباته الاجتماعية بطلاق أو فقد أو تخلي!!

هي ضريبة شرسة دفعها أصحاب المهن الحرة ومهن القطاع غير المهيكل، مبالغ الدعم الهزيلة التي صرفت لثلاثة أشهر من صندوق جائحة كورونا، الذي أسسه جلالة الملك محمد السادس للمواطنين في وضعية هشة، لم يكن كافيا أبدا لتدبير المرحلة الراهنة..

اضطر المرحوم زوجها للاقتراض من أصدقائه وأهله، واقترضت هي من أهلها دون أن يستطيعوا تغطية كافة المصاريف التي اختصرت في الضروريات الضرورية، ليضطر فؤاد لبيع معدات شركته وتسليم المحل لصاحبه الذي تنازل عن الأشهر السابقة غير المسددة وقدم له تعويضا ماديا بسيطا تعاطفا مع وضعه المزري ورغبة في إخلاء محله الذي كان مقر عمل فؤاد لأكثر من 20 سنة، خسر كل تعب عمره بسبب هذه الأزمة، وخسر ماء وجهه أمام عجزه عن تدبير مصروف بيته..ذاك التعويض ساعده على تسديد بعض الديون التي أعادتهم لنقطة تحت البداية..

أزمة مادية خانقة أخذت من نظارتها وبهجتها الكثير والقادم أسوأ!

عادت نوبة الكحة لتنال من جليلة بعدما بذلت مجهودا في التعقيم والتفكير، أسرعت إليها نوال التي احترمت شرودها الحزين..
أمسكتها من ذراعها وسحبتها للجلوس على الأريكة، رفعت عنها كمامتها لتطالعها أخيرا ملامح جليلة الجميلة الشاحبة والمتعبة، بذلت مجهودا لتجمع بين ملامح صديقتها الشابة وملامحها الحالية التي تفنن الزمن في إنهاكها مع الإبقاء على بعض فتنة الصبا..
- اهدئي حبيبتي..تنفسي بعمق..لست في حاجة إلى التعقيم..لست خائفة منك وإلا لما جئتك أصلا!
حاولت جليلة بيدها المرتجفة وملامحها المرتعبة أن تعيد كمامتها إلى مكانها..
تجاهد للتنفس..
وتجاهد لإبعاد صديقتها عنها، التي بدت غير مكترثة..
فقط مهتمة بمساعدتها على التنفس..
تأملت جليلة ملامح نوال من هذا القرب..

لا زالت كما هي..لم تتغير..
من بين أنفاسها اللاهثة..
- أنت لم تتغيري!!
ابتسمت نوال بود وإخلاص..ربتت بحنو على خصلات صديقتها النافرة التي رشت بشعيرات شيب لامعة كخطوط ثلجية على تربة بنية..
- لم أتغير لأني لم أنهك قلبي بحب رجل!!
لم أتزوج..ولم أنجب..
تعلمين أن كل ولادة للمرأة كأنها تأخذ منها عشر سنوات من عمرها..
لذلك صمدت أمام تعاقب السنوات..
تمددت جليلة تسترجع أنفاسها التي كادت تنقطع بهذه الكحة الجافة والمجهود البسيط..
بعد تردد استسلمت لإنهاكها وأمسكت بلهفة بيد نوال..
- أريد العودة إلى سريري..
بي حاجة إلى النوم..
اعذري تعبي..
المطبخ لك والثلاجة بها كل ما تحتاجينه..
في داخلي آمان وفرح أنك هنا صديقتي..
ساعدتها على الوقوف ورافقتها إلى سريرها، أحكمت برفق الأغطية حولها وهي تتمنى لها نوما هنيئا..
من بين أجنحة النوم الناعمة التي حملتها همست مذكرة..
- لا تنسي، عقمي يديك دائما..
لا تلمسي أنفك أو وجهك!
بمشاكسة محببة..
- أوامرك أمي!

نامي يا فراشة البِشر..
جففي أجنحتك المبللة على دفئي..
تخلصي من سن ضعفك..
اتركيه لأجلي تحت الوسادة..
سأغيره لأجلك قوة ونارا وبهجة..
استيقظي..
خذي أجنحتك الدافئة..
وطيري..
فالفراشات يليق بها التحليق الطروب..

النوم هذه المرة مختلف..
تشعر بحرارة مريحة في صدرها البارد والجاف..
شفاهها تخلصت من تيبسها الثقيل، تبدو مرنة كأنها تحدثت أو ابتسمت، لا تذكر إلا أحاديثها القصيرة مع عائلتها..
كم هو قاس هذا العزل الصحي، ومع حدادها هي مجبرة لتعيش فجيعتها وحدها دون عزاء من أحد!
دون حضن يلقيها إلى آخر لتفقد شيئا من الحزن..لتخفي الثقبين الأسودين الذين يبتلعان جوفها..
إنها ثكلى بفقد طفلتها، وأرملة بفقد زوج حتى وإن كان خائنا، كان رفيق دربها ووالد أطفالها..والعشرة عند الأصيل لا تهون!
كم تشعر بالبرد في الليالي الماضية، اليوم مختلف إنه دافئ..
لأول مرة تواجه فجيعتها بالمعرفة!
يدرك لاوعيها في حلمها ما حدث لها في الواقع..

لم تأتيها كوابيسها على ذاكرة بيضاء، لتمارس عليها طقوس الفقد كل ليلة من لياليها السابقة، لتنهض بدمع على مآقيها، منهكة القوى، غير قادرة على مغادرة السرير..
فقط الصلاة و المرحاض ورنين جرس الباب من يجبروها على مغادرته!
اليوم أحلامها ارتدت وعي الذاكرة..
بشت لرؤية وجه نوال في حلمها..
اقتربت منها..
ضمتها إلى صدرها المتهرئ بالوباء و بشوق سنوات فراقهما العجاف..
شعرت بدفئها وحنانها وهي تحتويها بذراعين حارتين كعناق والدتها القطني الناعم..
تخلصت من حذرها، من مسافة إجبارية التباعد..
من منع التلامس والعناق..
الجميل في الأحلام أنها لا تنقل العدوى!!
لا تستجيب للقوانين..الوحيدة التي تسمح بالتمرد على قوانين المجتمع وحتى قوانين الطبيعة، ألست تحلق في أحلامك بين المرتفعات! إن الأحلام تعويضنا الوحيد لنجرب بآمان ما حرمنا منه دون متابعة أو حساب!

حاولت في كل معارك حياتها السابقة أن تحافظ على حسها المحارب يقظا فطنا لكل الكبوات التي قد تكبو فيها..
تتوقع الهزيمة كما تتوقع الانتصار..
مع أن الهزيمة بعد قتال شرس تعتبر ربحا مجانيا للخبرة الحياتية..
الحاضر تستطيع محاربته بكل ما أنت عليه اليوم..
الكارثة هو ذاك الماضي القصي الذي ارتكبت فيه خطأ بكامل وعيك واختيارك، خطأ نما وتوسع وتكاثر، ليصبح كحد سيف قاطع على عنقك، يعجزك عن التحرك قيد أنملة..تمضي عمرك وأنت مسمر مسكون بالخوف من حد السيف،تراقب بذبول عاجز تعاقب السنوات عليك دون أن تفعل شيئا، تخاف من الموت مع أنك فعلا ميت! أنت مجرد جماد منسي على الهامش، والحياة تمارس عليك الموت باحترام كل يوم!
لا تستيقظ إلا بعدما تتجاوز منتصف عمرك..
حينما تستيقظ من الخوف..وتكشر نظراتك أمامه، تمسك بخناقه..وتسأله سنواتك الضائعة..
ليتجلى لك أخيرا فداحة ما ارتكبته في لحظة براءة ويقين وتفاؤل!
تجلس على حافة تاريخك متحسرا..
لا حماسة الشباب تنصرك..
ولا فرص وطنك تنصفك..
ولا فكرك اليائس ينصحك..
ولا جسدك المنهك ينفعك..
تجلس جلسة منهار بائس..
ندم العمر المنصرم كله ينخرك..
أحشاؤك الداخلية تتمزق بالحسرة..

ترسل إليك لسعات كالبرق..
تنتشر في قفصك الصدري كما طعنات خنجر خفيفة ومتتالية..
تكزك ألما، لكنها لا تقتلك..توقع بسيفها على روحك ندوبا نازفة وهي تقلد برشاقة براعة خطوات "زورو"..
تتكرر كلما سال ملح الندم على جروحك..
وهذا مؤشر حيوي لتضعف مناعتك..
وتتمكن منك جميع الفيروسات..بنوعيها الصديقة أو الفتاكة..
لتنهشك وترميك بسهولة إلى فك الموت!
لو تعلمون كم أن الحزن يقتل!
كلما دخلت إلى حزنك..وتجولت فيه..وجدته مملكة سوداء يتربع فيها الجلد على عرش هزائمك..
منفى لكل مشاعرك السلبية وخيباتك وفشلك..
إن أقفلت عليك الباب داخلها، فاعلم أنك تخطو خطواتك نحو الذبول..
نحو النهاية الطوعية!
صعب جدا أن تخرج منها حيا أو سليما دون عاهات..
وكما المهزومين مثلها أدمنت جليلة الدخول إلى مملكة حزنها..
صحيح أنها أصبحت خبيرة السفر والتجول فيها، إلا أنها كل زيارة تعود ناقصة بسمة أو حلما أو حماسا أو متعة!
تعود متوشحة الفراغ..
مستوحشة في الحياة..
ومتوحشة مع نفسها..
تصبح غريبة تمارس الحياة لأن جثتها لم تدفن بعد، ولم يصلوا على جنازتها..

عجيب أمر الناس!
يبكون جثتك الميتة ولا يبكون على موتك وأنت قيد الحياة!
قد تتسآلون كيف يُلحظ موتك وأنت حي بينهم!؟
يكفي أن تلاحظ أن الميت حياة في ذات مكانه دائما لا يتحرك منه!
يكرر نفسه بملامح جامدة وبذات اللازمة جوابا (أنا بخير!) على سؤال (كيف حالك؟)، عليك أن تثق أنه أكبر كاذب!
اعلم أنها صرخته المشفرة كي تنقذه..
لا تراقب شفتيه المتيبستين..
راقب عيونه اللامعة بدمع مبتلع وهو يهرب بهما عنك، كي لا يجبن ويتعلق بك كطفل صادق في مأزق يحتاج إلى النجاة ويطلبها بصدق وإلحاح!
جميعنا شفاهنا مدربة على جواب (أنا بخير)..
وأنت حقا لست كذلك!
أنت ترغب في الصراخ..
في التمرغ في التراب والنحيب..
في التمسك بتلابيب من يسألك، أو يهتم لأمرك أو حتى من يدعي أنه كذلك..
فالغريق لا يشترط بياض قلب منقذه!
يريد ببساطة أن يصرخ: أنا أفرغ من الحياة!
أنقذوني!!!
فتستمر في الحياة..
لا أنت تصرخ لتعلن ما ينهشك..ولا أحد يتقدم لينقذك!
إنك قطعا عالق و موؤود في الصمت..
من سألته وكذب "أنه بخير"..احضنه..واهمس له" سعيد أنك بخير"..
وسيجهش بالبكاء!

لكن من يعرفك بقلبه لا يحتاج إلى حديثك كي يعرف كيف حالك، يكفي أن تناديه بصمت في أعماقك، لتراه مستجيبا لتخاطرك ونداءك..
كما حدث تماما مع جليلة التي غرقت حتى رأسها في الفجيعة، لتهرع نوال إليها دون أن تطلبها..
جميل جدا أن تجد وقت سقوطك، من يمد كله ليحملك، ليس مهما أن يكون قويا أو مستغنيا، يكفي أن يحمل قلبا كبيرا ليحتويك بنقصك وضعفك، ويخبئك في جناحه وعطفه وحمايته حتى تستعيد عافيتك..
دون أن يكشف سرك لأحد أو يتشفى بك في سره، أو يجعلك حديثا ملهبا للمجالس!
صوت الآذان المنبعث من هاتفها أيقظها..إنه الفجر..
غادرت سريرها بهمة ونشاط..
توضأت لترتدي ثوب الصلاة، ترددت في إيقاظ نوال..لتحسم أمرها بألا تفعل، إن كانت راغبة في الصلاة فمؤكد ستسمع تحركاتها وستلتحق بها..
انتهت من الصلاة وانغمست في دعاء باك لطفلتها وزوجها..
- رحمهما الله ورحم كل موتانا المسلمين..لا تنسيني من دعائك!
أيقظها من خشوعها صوت نوال الأجش والمتأثر..
التفت إليها، وجدتها مرتدية ثوب صلاة مبهج بخضرته..
- لم أشعر بقدومك!
- لأنك تخشعت في صلاتك..
جليلة متحسرة..
- أندم على ما فاتني من صلاة، كنت أصلي وجل ذهني شارد في متطلبات الحياة، حينما اقترب الموت من أحبائي، تغيرت..رأيت كيف أنه أخذ زوجي على حين غرة في عز قوته وطفلتي في سنواتها الأولى..

لمست أننا مجرد ضيوف عابرين في الحياة، لن ينفعنا ما اكتنزناه من أموال ونجاحات، ينفعنا فقط زادنا من العمل الصالح، ينفعنا الخير الذي سنتركه خلفنا، يجب أن نتساءل دوما هل كان عطاؤنا جيدا في الحياة!؟ وهل قدمنا ما ينفعنا وينفع غيرنا !؟ أم نحن مجرد شر ستبتلعه الأرض في قبورها المظلمة وتخلص البشرية منه!

ماذا سنخبر الله حينما يسألنا كيف أمضينا حياتنا!؟ هل أخذناها على محمل الخير أم محمل الشر!؟

هل سنترك أثرا طيبا يشتاقون به إلينا أم شرا يحمدون به الله أنهم تخلصوا منا!؟

إصابتي بالوباء جعلتني أختبر قربي من الموت، كل كحة اعتقدها الأخيرة التي ستمزق الشعرة الرفيعة التي تربطني بالحياة وتفصلني عن الموت..

سمعت شهقة نوال الباكية..

- لا تنسيني من دعائك وتصدقك!

نهضت جليلة من سجادتها لتضم نوال إليها بأناة وعطف..

- كنت أدعو الله دائما أن ألتقيك، وقد استجاب لدعائي، سأدعو لك بالشفاء دائما..

تشبثت بها ببكاء واستجداء..

- إدعي لي بالعفو والرحمة!

- سأفعل صديقتي، أعرف أنك تتألمين، ستشفين بإذن الله..

- إياك عند الشفاء ونسيان فقدك أن تنغمسي في الحياة وتنسي الموت، تذكري دائما أنه من الممكن أن تموتي اليوم أوغدا!

أبعدتها جليلة لتنظر إليها بترقب..

- تتحدثين وكأنك ستغيبين عن حياتي من جديد!

- مطلقا لن أغادرك أبدا! تذكري ما أخبرتك إياه في بداية صداقتنا، من يدخل قلبي، لا يغادره أبدا!

- سجلي لديك..لا أرغب في الخروج أبدا..

حسنا دعينا نقرأ ما تيسر من االقرآن الكريم، بعدها سأعد فطورا شهيا، أحب الفطور المبكر مع رائحة الفجر ونسيمه المنعش وصمته..ذكريني بتناول دوائي..

-أي دواء؟

-البرتوكول العلاجي المعتمد كعلاج لكورونا في المغرب..حصلت على الكلوركين من المستشفى العمومي لأن الدول سحبت كل الدواء من الصيدليات، تجنبا لاحتكاره من طرف المافيات الصحية..إضافة إلى بعض الفيتامينات والزنك ومخفضات الحرارة في حالة ارتفاعها..

تجهمت ملامحها..

رغم أن كورونا فرصة لنغير رؤيتنا للحياة والموت، لكن مستغلي الأزمات والمقتاتون على خساراتها لا يهمهم إلا المزيد من الربح على حساب المرضى والفقراء..

- حفظنا الله منهم..شافاك الله وعافاك حبيبتي..

- آمييين مع الشفاء لكل المرضى...

بعد ساعة تقريبا كان المطبخ دافئا برائحة القهوة وفطائر والدة جليلة التي تسخن في المقلاة، وحلوى معدة من زوجة أخيها نجاة..

منذ مدة افتقدت جليلة حماسة إعداد أي شيء في المطبخ..

أثناء تناولهما الطعام،اعترفت جليلة..

- رغم أنني فاقدة حاسة الشم والتذوق إلا أنني أشعر بلذة هذه الفطائر، أستعين بذاكرتي التذوقية..يساعدني في ذلك بهجة تناول الطعام معك، ذكرتني بمتعة وجباتنا أيام الجامعة رغم قلة ذات اليد..أتذكرين يوم أنهكني

الجوع فتكفلت بتسول فطيرة لي من سيدة الفطائر وأنت تقنعينني أن أبالغ في ملامحي البائسة جوعا أصلا كي ترأف بي!
انفجرت نوال بضحكة هستيرية وفمها ممتلئ بالفطائر، فأسرعت ببلعها ويدها تطلب منها التوقف كي تذكرها بموقف آخر..
- أتذكرين يوم دخلنا إلى مطعم راقي لتناول الغذاء، طبعا اخترنا أرخص السندويشات المليئة بالخضر والخس كأننا أرانب، كنا نحب الطابق العلوي لأنه يطل على شارع محمد الخامس الأنيق، لحسن حظنا كان الطابق فارغا إلا منا وثنائي غرامي جالس خلفي، تكفلت أنت بنقل الحدث إلي بكل تفاصيله، حيث كانت الفتاة البالغة الدلال تدغدغ بشوكتها نصف الدجاجة المحمرة مع مغازلة طفيفة للبطاطس المقلية، كنا ندعي الحديث والضحك وضالتنا مائدتهما،غادرا أخيرا وطبقيهما لم يتغير منهما شيء، ما إن أخبرتني حتى استدرت بسرعة كمن كانت تخطط وتنتظر إشارة لتنفذ، هجمت بكلتا يدي على المائدة وأفرغتها من غنائمها وأعدت العظام إلى أهلها كي لا نترك أي دليل سطو!
خرجنا بخدود موردة وخطوات متخمة ويدنا ممسكة بعود تنظيف الأسنان، نخرج به ما علق من لحم الدجاجة المسكينة، أمام أنظار النادل المندهش المتأكد من وجبتنا النباتية، التي لن تعلق لا في الأسنان ولا في المعدة ولن ترسل دماء الحياة إلى وجنتينا..
ضحكت جليلة كما لم تفعل منذ سنوات حتى شرقت بالطعام..
-توقفي! تريدين قتلي..
انتهت موجة ضحكهما القوية..رفعت جليلة يدها لتمسح دموع الضحك..
فتنهدت نوال بارتياح..
- وأخيرا دمعة ابتهاج..لا تنسي أن حاجتك إلي تجعلني في منتهى الجرأة والقوة والشراسة!

تهللت ملامح جليلة..
- كما فعلت مع ذلك الرجل الوقور، كنت في حاجة إلى درهم لأتحدث في الهاتف العمومي إلى أمي..
(قلدت صوتها المستعطف المؤدب)..عمي ..عمي أنا طالبة وأحتاج إلى درهم لأتحدث إلى أمي!
لن أنسى أبدا كيف رمق مظهرك المرتب لأنك طالبة بحقيبة، أدخل يده في جيبه وغادر وهو يتمم" الله المسهل ابنتي"!
تركك مسمرة كأنه ألقى عليك سطلا باردا وأنا لم أتمالك نفسي من الضحك لرؤية صدمتك، لأنك كنت واثقة من مساعدته لك!
ضحكتا بشدة واستمر حديثهما عن طرائفهما حتى أشرقت شمس الصباح..
- ما رأيك أن أضع لك سريرا في غرفتي، هكذا نستطيع التسامر حتى يأخذنا النوم..
- كنت سأقترحها، لكن انتظرت المبادرة منك..
قفزت جليلة بحبور وهي تنفذ الفكرة بسرعة، قبل أن يفتر حماسها ويستيقظ حذرها من الفيروس..
بعد جهد كبير فردي، رفضت فيه مساعدة نوال ذات العمود الفقري المتضرر، أدخلت سرير ولدها جلال، ليكون مؤقتا سرير نوال..
استلقت كل واحدة في سريرها، سرعان ما صمتت جليلة وعيناها ملتصقتان وشاردتان في سقف الغرفة..
- أين سافرت؟
- "عد بي إلى حيث كنت قبل أن ألتقيك، ثم ارحل"..
أعتقد أن "محمود درويش" لم يقل ذلك، إلا بعدما خذل بقوة كي يلفظه بهذا العمق والصدق و الخيبة..

-إذا تحققت أمنيتك، هل أنت قادرة على التخلي عن فوزك الكبير من هذه التجربة، طفليك الرائعين!؟
انتفضت بذعر.. إذ تذكر قلبها وجع فقدان طفلتها، لا وجع يقهر قلب الأم غير موت فلذة كبدها قبلها!
- كلا..أعتقدني سأكرر لقائي به لأحصل منه على هذين الجميلين..
- لهذا جعل الله المرأة مختلفة عن الدجاجة..
استدارت إليها جليلة بدهشة..
- وما وجه التشبيه بين المرأة والدجاجة!
- التركيبة الفيزيولوجية الطبيعية للدجاجة تجعلها تقوم بتخزين السائل المنوي في جسدها، إذ يمكنها امتصاص كميات منه دوريا وعلى مدار شهر كامل ، هذه الخاصية تمكنها من إنتاج العديد من البيوض المخصبة، وإذا صادف و تم التزاوج مع ديك لم يعجبها، تقوم بسهولة بإتلاف العينة بأكملها وتدمير مخزونها وإنتاج بيوض عقيمة، كي لا يكون لها كتاكيت من ذكر سيء!

- أعتقد وجه الاختلاف أعمق، لو كانت ذات الخاصية الفيزيولوجية عند النساء، لانقرضت البشرية منذ أزمان!

تنهدت بألم ويدها على صدرها من الوخز المؤلم فيه..

- مؤذ جدا أن تكتشفي أن من سلمته مفاتيح قيادة سفينتك مجرد ربان فاشل مخادع وجبان سلمك للغرق في أول مطب أمواج!

تتبعت عينا نوال يد جليلة التي تضغط على صدرها وقد عضت على شفتها من الألم..

- ما به صدرك؟

- منذ وفاة سارة وفؤاد وعلمي بخيانته، لازمني ألم ووخز فظيعين في صدري مع ضيق شديد في التنفس..أعتقدها من أعراض فيروس كورونا..

- ليس بالضرورة، هناك حالة طبية معروفة بمتلازمة القلب المحطم، تصيب الأشخاص الذين تعرضوا لصدمة عاطفية قوية، وما ذكرته من أعراضها تماما، ستشفين من الفيروس، لكن هذه الأعراض ستلازمك، لذلك عليك معالجة روحك وقلبك..

انهمرت دموعها من بين عذابها..

- علمني معنى الحب وتخلى عني..كان عليه أن يمتلك شجاعة إخباري أنه يخونني، كي يترك لي حرية رفض الوضع أو قبوله..لم أخذ بريق حياتي الماضية، لم جعل منها وهما وأكذوبة!؟

لكنت الآن أبكي شوقه..أنا أبكي وهمه..أبكي مشاعري المستغفلة..سرق حقي في يقيني وافتخاري بأني عشت أسطورة الحب!

زاد نحيبها..

- لا تعلمين النار التي تركها تلتهم أحشائي، استغفلني سنوات، حرمني من أشياء كثيرة كي تستمتع بها عشيقته، حرمني مرافقته إلى المطاعم بدعوى أن ذلك لا يليق بأم أطفاله!

قاطعتها نوال بتهكم مستنكر..

- لا بد أن أصوله يابانية فوحدهم من يمنعون جلوس المرأة أمام الرجل في المطاعم العامة!

تأوهت جليلة بمرارة..
- مارس علي أغرب قوانين المنع والقهر، مقابل أن يقدم لها كل ما حرمني منه، غادر برفقتها إلى منتجعات بدعوى أنها سفريات عمل! أهداها حليا ذهبية وملابس كثيرة من ادخار حرماني..

أتعلمين أنه عرفها لأكثر من خمس سنوات، أنفق عليها ما كان سيحقق حلمي في دار مستقلة وليس شقة اقتصادية..

كان يوهمني بقرب تحقيق أحلامنا كي أحرم نفسي أكثر وأتنازل عن حقي في عيش الحياة، الأمر أكبر من الخيانة وجرحها..

لقد استغلني..

أضاع حقي في عيش حياة مريحة..جعلني أتقبل الحرمان بشهامة وأنا أعتقد أني أساعده!

أذلني بجفائه واستجداء رضاه وحنانه، جعلني أشك في نفسي، كيف استطاع إخفائها دون أن أشعر!؟

كنت أراقب هاتفه ورسائله أمامه دون انزعاج منه، ولا مرة أخفاه عني عند استحمامه أو مغادرته للمسجد، أتعلمين لم لم أجد شيئا!؟

لأنه كان بارعا جدا في الخيانة، كان لديه هاتف آخر في السيارة، هاتف خاص بعشيقته التي كان محظورا عليها الحديث إليه في هاتفه الرسمي مهما كانت الظروف!

لذلك استغفلني بآمان مزيف، جعل حياتي وهما..

جعلني مؤخرا مجنونة مسعورة بشكها دون دليل..

كنت أشعر بها في عينيه الجامدتين..

في يديه الباردتين..

في مشاعره الفاترة..

تعرفين مادة اللومينول التي يرشها المحققون في الجرائم في مسرح الجريمة المشكوك فيه، إذا كانت هناك دماء نظفت عن المكان تلمع شظايا الدماء بالأزرق لمدة تدوم 30 ثانية بعدما يفتح زر النور، وهو ما يعرف علميا بالعملية الضيائية الكيميائية، وذلك نتيجة تفاعل المادة مع الهيموجلوبين الموجود في الدم..أجدني أشبه اللومينول، أتفاعل مع خيانته أستشعرها..

لأننا نحن النساء نحمل رادار استشعار للخيانة..

لكني كنت في حاجة إلى ضوء هارب من حذره كي أضبطه بجرم الخيانة، كم ظلمني..كان معتما في حياته..وتسلل إلي نور اليقين بموته!

كم استغلني..

كم أذلني وأذاني..

- يميل الأشخاص الذين يعانون من تدنِّي احترام الذات، وقلة الثقة بالنفس إلى إذلال الآخرين وأذيتهم..

أصاب يوسف السباعي حين قال: "لو أيقن الظالم أن للمظلوم ربا يدافع عنه لما ظلمه، فلا يظلم الظالم إلا وهو منكر لربه"..

ما أشقاك مع ربك يا فؤاد!

ازداد نحيب جليلة حتى ضاقت أنفاسها من جديد..

هرعت إليها نوال لتضمها برفق بين ذراعيها وهي تحثها على الهدوء ويدها تفتح مقدمة سترتها للتنفس بارتياح أكثر..

استكانت بين ذراعيها وتنفسها يعود تدريجيا إلى طبيعته..

- ارأفي بنفسك..شووووت..سأحكي لك قصة جميلة ستواسيك..

أحد الأزواج استغل سفر زوجته للعمل كي يحضر عشيقته إلى بيت الزوجية، وقبل السفر شعرت الزوجة بالمرض فأعفيت من السفر وعادت إلى البيت، سمع الزوج مفاتيح الباب، أصيب بالذعر فطلب من أعماقه أن تختفي عشيقته كي لا تضبطه زوجته متلبسا في سرير الزوجية، ظهرت له جنية وأخبرته أنها ستساعده بشرط أن يموت غرقا بعد سنتين، ولورطته وافق على عجل، لتختفي عشيقته تماما وينجو بفعلته، بعد سنتين أخبره صديقه أن شركة شهيرة تنظم رحلة بحرية مجانية للرجال فقط، فواقف على الفور ناسيا الوعد الذي قطعه للجنية، التي ظهرت مجددا على ظهر السفينة لتعلن له أنها ستغرقها تنفيذا لوعده الفارط بالموت غرقا، تباكى وتدلل وتعلل بأن باقي الرجال غير مذنبين بفعلته، ولا يجب أن يؤخذوا بجريرته، فأجابته بثقة: "لا تقلق، سنتين وأنا أجمع كل الأوغاد الخونة للوفاء بوعدهم الوحيد في حياتهم"..

سحبت منها ضحكة مغتصبة رغم وجعها..

أبعدتها نوال لتقابل وجهها المتورم ببكائها الهستيري، غمزتها ويدها تمسح بنعومة دمعها العالق في وجنتيها..غمرتها بمحبة وارفة..

- أرأيت ليس زوجك الوحيد الخائن! تخيلي أن السفينة كانت بحجم سفينة تيتانيك ولمخيلتك حرية عد الخونة، مع العلم أن تلك الجنية كانت مشرفة على خونة مدينة فقط، وهناك جنيات موزعات على كل المدن عبر العالم..لا بد أن القروش مستمتعة بوجباتها الدسمة!

ضحكت جليلة ضحكة صافية وقد عاد البريق إلى عينيها..

- لا يمكن مقاومة خفة دمك..

- لا أريد رؤية حزنك، يؤلمني ذلك بشدة، أريدك أن تدركي أن معظم الرجال هكذا، إلا من كانت خشية الله في قلبه أكثر من شهوته، فكما قال الفيلسوف طاغور" العفة ثروة تأتي من وفرة الحب" وأنا أحدد الحب في حب الله وحب النفس وليس حب الشريك، لأننا بهذا قد نشرع الخيانة إن نقص الحب من الشريك، والعفة لا ترتبط بالطرف الآخر بل ترتبط بمدى حبك لله وإتباع نواهيه، ومدى حبك لنفسك كي لا تؤذيها بما يكسر الفخر الذاتي..

والمرأة بدورها تتحمل مسؤولية التفكك الأسري الذي نشاهده في معظم الأسر، فلهفتها الشديدة لحمل لقب متزوجة تجعلها تتمسك بزواج فاشل جدا وتستمر فيه، كي لا تحمل لقب مطلقة، لا يهم أن تعيش الفشل مع نفسها، المهم ألا يراها الآخرون فاشلة أو ينعتوها بذلك..لتوقع المزيد من الضحايا بإنجابها رغم فشل الزواج..

- ليته أهداني الفشل قيد حياته كي يسهل علي تقبل موته، لقد أهداني جحيما من الألم والخذلان..

لقد أحرقني..شوه أنوثتي وعشقي الذي تمسكت به رغم سوء معاملته..

- الأراضي الزراعية المتعبة والغابات، كي تستعيد عافيتها تحتاج إلى الاحتراق بالنيران..
- لا يمكنني التعافي..لأني حرمت من الصراخ في وجه خيانته، حرمت رؤية ملامحه وأنا أسأله لم خانني!؟ كنت أريد أن أعرف إن كان سيهتم لمشاعري،إن كان سيخاف من معرفتي خيانته!؟

كنت أريد أن أعرف إن كان سيتركها ليبذل مجهودا في استعادتي أم كان سيلقيني جانبا ويجبرني على تقبل أمرهما!؟

مات دون أن أعرف إن كنت أحتل مكانة في قلبه، هذا إن كنت في قلبه أصلا!

حرمت من معرفته لعزة نفسي، بأنه كان عليه فقط أن يخبرني عن تعلقه بأخرى لأتركه!

تركني أعيش غربة قاسية وأماني كاذبة في أنه سيعود ذاك الذي أحببته وتزوجته..في حين أنه مخادع يمسح دماء الخيانة من يديه ليلمسني بذات اليدين!

ارتعشت باشمزاز..
- التفكير في ذلك يكاد يصيبني بالجنون..
- التفكير في الأشياء التي لا تملكينها هي التي تشعرك بالبؤس، فكري دوما فيما تمتلكينه، واشكري الله عليها كي لا تفقديها، وتتحسري لجهلك قيمتها وعدم استمتاعك بها..تعلمي نسيانه واستمتعي بما لديك..

- رغما عني، اكتشافي لدرجة سوء أخلاقه جعلني اكتشف أني متزوجة من وحش أجهله..
- أتذكرين تكرار أستاذ القانون الجنائي لمقولة ألبير كامو"رجل بلا أخلاق هو وحش تم إطلاقه على العالم"..

يكفي أن يتجرد الواحد منا من أخلاقه ليتحول إلى قنبلة دمار شاملة، يعتقد كل واحد أنه حر في فعل ما يريد، لكن لا معنى لحريته، إن لم يحرر روحه من مخالب نفسه الأمارة بالسوء التي تلقيه في مواقف تنقص من شخصيته وتجعله يغترف ذنوبا مجانية كان من الممكن تفاديها بحرصه على حماية تقديره الذاتي واحترامه لشريكه الشرعي..أبسط ما يمكنك تقديمه للبشرية أن توقف شرك عنها!

أنت لم تظلمي أحدا..

استوعبي جيدا أنه لم يخنك..

هو خان عهده مع الله وخان نفسه..

حاولي أن تنامي قليلا ..

أريحي قلبك وعقلك..

الله سيجبر خاطرك..

كلمات نوال كانت بردا وسلاما على النار المشتعلة في صدرها..

نظرت إليها بامتنان، تفرغ ضياعها في مروج عينيها المريحتين والدافئتين.

يحدث أن تسرق غفوة من وقتك..مع أنه خمول وكسول ولا قيمة له مثلك تماما..
يحدث أثناء مللك أن تتجول بين أروقة الذاكرة، تقودك خطواتك إلى ذلك الدهليز المظلم حيث تتكدس الذكريات المتخلى عنها، تتعثر في علبها المتناثرة وغير المرتبة..
كأنها ألقيت على تخلص مستعجل..
ترفع عنها خيوط العنكبوت والنسيان..
تحاول أن تعطيها بعض القيمة بأن تحييها بنعيك..
تبكيها و تجبر خاطرها لأنها في وقت ما كانت وجعك الأشد سطوة..
وإن تقادمت ما زالت في نفس سطوتها..
لذلك تخفيها في دهاليز الذاكرة السرية كي لا تنهكك وتضعفك..
تفتحها كل حنين إلى وجع أكبر كي تهدهد به وجعك الحاضر، أو بتعبير أصح حتى تهدده بأنك اختبرت أشرس منه في سيرتك الماضية، فلا يتجرأ على اختبار صمودك!
أو لنكون أكثر تحديدا وصدقا من أجل أن تكتمل ملحمة جلدك لنفسك وشفقتك المزرية على حظك..
لذلك تدعو جميع أوجاعك إلى حفلة خيبتك ليكون بكاؤك باذخا بشهود تؤكد فيه بطولاتك مع الفجيعة..
تظاهرت جليلة بالنوم، لتتجول رغما عنها في دهاليز ذاكرتها الموجوعة،..
لا تعرف كيف تبرر اختيارها له..هل تعتب على الرجولة التي ضاعت بطولاتها مع ما كانت تقرؤه في الأدب!؟أم تعتب على سذاجتها في التصديق!؟
أمن الممكن أن يكون تاريخ الأدب كاذبا!؟

لأنه من الصعب الاستيعاب كيف انقرضت الرجولة دفعة واحدة، وتركت ذكورا يقتاتون من أشلاء النساء!
هل تعتب على المجتمع الذي تعرى جميع أفراده -بنسائه ورجاله- عن كل قيم ومبادئ الدين الإسلامي والمعايير الإنسانية!
تجهل متى حدث هذا التحول الطبيعي و القيمي، حتى تفقد الرجولة قيمها من الشهامة والنزاهة والنبل والصدق والاستعفاف والوفاء والإيثار والاحترام واللياقة واللباقة والنخوة وعزة النفس والشجاعة والحكمة وجبر الخاطر والتصدق والتروي والحلم والمسؤولية والترفق بالنساء ووو..
متى انتهينا هكذا!؟ متى أفرغنا من هذه القيم النبيلة!
المدعاة للسخرية والشجن أن كل اللذين صادفتهم قبله كان هو أفضلهم! مع أنه بقيمة الرجولة مقياسه ضعيف وإن لم نقل منعدم! وبقيمة المجتمع والذين صادفت مقياسه جيد جدا!
أين موطن الخلل إذن!؟
تكاد تجن..
أحرصها هو ما جعلها تتعرض للخديعة!؟
أم أن طهرها يجذب السفلة واللئام كي يتلوث يقينها!
ألم يكن نضجها كافيا لتشم رائحة الزير النساء المختبئ خلف قناع نزاهته المفتعلة!
هل انجرفت وراء العواطف والمثالية وتجاهلت المعطيات الواقعية والموضوعية!؟
هل العيب في رومانسيتها التي جعلتها غبية بامتياز وجعلتها تجر إلى الهاوية ضحايا غيرها!؟
كم تراها ستطرح من أسئلة لتحدد طبيعة المشكلة وأسبابها وتداعياتها، لتفهم ويهدأ الوجع داخلها..

ومع ذلك تريد أن تلقي كل هذا خلفها..
تريد أن تبحث عن الرضا، كيف تصبح راضية في حياتها؟؟
كيف يستطيع الإنسان الوصول إلى الرضا!؟
كيف تعرف أنك راض عن حياتك ونفسك!؟
هل من الصعب أن تصل إليه أم من السهل جدا الوصول إلى هذه الطمأنينة التي يفتقدها أغلبيتنا!
لذلك نحن دوما متوترون..
ساخطون على الأوضاع..
نبحث عن الآخر لنعلق عليه فشلنا..
كل ما يحدث لنا ليس بأيدينا بل هو من فعل خارجي أو حتى من تواطئ فضائي!
لا نحب أن نتحمل مسؤولية أفعالنا..
لأننا إن فعلنا..
سنقتلها دون رحمة إن استفردنا بها في لحظة يأس وغضب..
نحن شعب جبان..
من سابع المستحيلات أن نعترف بمسؤوليتنا في الخطأ..
لذلك لا نصحح شيئا..
لا نعتذر من ضحايانا..
نمزق بعضنا ونمضي..
نحتاج إلى آخر مقدس أو دولة لا طاقة لنا بها لتوجيه أصابع الاتهام إليهم دون متابعة قانونية أو تصفية!

وهذا بالضبط ما قصده فولتير حين قال:" الرجل في حاجة شديدة إلى زوجة، فهنالك أشياء كثيرة لا يستطيع فيها إلقاء اللوم على الحكومة وحدها..الرجل في حاجة إلى شماعة ترافقه طيلة العمر كي يعلق عليها فشله في الحياة"..
ليس الرجل وحده، جميعنا نفعل هذا، أغلبنا يسجل فشله ضد مجهول..
أو نسجلها باستسلام على ظهر القدر والقضاء لننهمك بإيمان في الدعاء" اللهم لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه"..
نرددها بلوعة بحجم الألم في قلوبنا..
بحجم الوجع الذي فاق قدرة تحملنا..
نهدئ أنفسنا وسط أنفاسنا المختنقة "الله يمتحننا على قدر استطاعتنا"، يجعلنا هذا نؤمن بقدرات كامنة لم نصل بعد إلى اكتشافها..
ننهض من شتاتنا..
نصرخ من حطامنا ونحن مثخنون بالجراح..
نفتح للقادم منها صدورنا العارية..
لهيب الانهيار صار اليوم شعلتنا لننير دروبنا المظلمة..
تنهدت بخفوت كي لا تثير انتباه نوال، استدارت بوجهها جهة الحائط، لتفتح عيونها التي عجزت عن النوم والأفكار تطاردها دون توقف..تعود للبدايات..
في فترة خطوبتهما حيث كانت تنظر إليه بعيون منبهرة..
المرأة دوما في حاجة إلى الانبهار برجلها كي تبقى قيد الحب والاشتعال..
وكي تحتفظ بامرأة قيد الحب والانبهار، عليك أن تكون في سقف عال من الرجولة والتواضع والسماحة و الخلق الحسن والحكمة والتواضع، لا مهرجا سخيفا مع كتلة خرساء من الغضب والشتائم وضيق الخلق..

إذا ما انطفئ الانبهار.. انطفئ معه كل الحب والمودة..
وهي مع السنوات انطفأت..
كانت منشغلة جدا بإرضائه..منشغلة بكيف تكون زوجة مثالية..
منشغلة بسحق نفسها وترويضها لتنصاع في قالب زوجة صالحة..
انشغلت بمراقبة نفسها عن مراقبته..
لتعيش مغفلة عن خياناته..انشغالها وانبهارها كانا غشاوة فعالة عن نزواته..
مرت السنوات من حمل إلى آخر..كانت ترغب في إنجاب نسخ عنه دون كلل ودون اكتراث ببطنها الذي تمزق مرات بالمشرط كي تحقق ذلك..
لم تعرف أنها كانت في وهم الحب وحدها!
كان استيقاظها موجعا جدا..
في منتصف العمر بكثير..
وبصحة معطوبة بالمشارط..
كل كحة أو عطسة هي بمثابة برق خناجر في أحشائها..
تتكور على نفسها كي لا تفتق منه أمعاؤها..
- ما مشكلتك؟ أعجزت عن النوم؟

استيقظت من أفكارها القاتمة على صوت قلق من صديقتها نوال المستلقية في الفراش المقابل لها..

استدارت إليها من جديد، تأملتها بنظرة عميقة تحمل من الاعتذار الكثير.. - متأسفة صديقتي..لم أستطع التخلص من عادتي السيئة، الحديث إلى نفسي والسرحان في مخيلتي..أعتذر منك..كانت هذه طريقتي لأظل قيد التعقل طيلة سنواتي الفارطة..لكن لا تقلقي..سأعتاد على وجودك..

ابتسمت نوال ابتسامة دافئة..

- لا عليك ..سأجعلك تعتادين وجودي رغما عنك!

تمزقت ضحكة جافة من صدرها المتحشرج..

- لا أشك في ذلك!

- فيم كنت تتحدثين إلى نفسك!؟

بتنهيدة طويلة كأنها تلفظ بها الحزن العالق في منعرجات قفصها الصدري..

- في البدايات..

تلك الفاكهة الشهية المسمومة..

التي لا تعطي مفعولها السام إلا بعد التهامها..

تستمتعين بطعمها الحلو..

تغريك في قضمة تلو أخرى..

كي تنهيها..

لتنهي معها أحلامك وتجهض يقينك وتسمم كل جميل فيك..

لذلك لا تثقي أبدا في البدايات الجميلة والمثالية..

إنها ملغومة ومغلفة بالموت!

- لا تعتمدي على شخصية البداية، هي مجرد بروتوكول رسمي لحصد الإعجاب أو الأسوأ الانبهار، كوني متأكدة المرضى النفسيين يظهرون بعد

الزواج وليس قبله، الجميع يجيد ارتداء قناع البدايات والحفاظ عليه، فلا أحد يعرفك وأنت خلف القناع، قد تكذب على الجميع بما ليس فيك، لكنك لن تخدع نفسك أمام مرآة روحك، لذلك أعتقد بثقة أن العيوب يجب أن تقال قبل الزواج وليس بعده، لأن تقبلها قبلا أسهل والقلب بعد تحت تأثير فورة الحب وعمى الشوق، أما بعد الزواج فتهدأ المشاعر وتصفى النظرات لتظهر العيوب كجبل من خداع يفسد العلاقة ويقدم مبررا للانسحاب والهروب..

على كل حال ليس عليك إرهاق نفسك بالعودة إلى البدايات..ما كانت لتفيدك اليوم في شيء..

- بالعكس..

أنا في حاجة إلى العودة إلى البدايات..

ليس لتعذيب نفسي..

بل لأكتشف الخلل الذي غفلت عنه..

عثوري عليه سيسمح لي بتجنب الوقوع فيه مرة أخرى..

استدركت بسرعة وهي تلوح بيديها نفيا..

-مع أنه من مستحيل المستحيلات..أن أفكر في زيجة أخرى!

- تقولين هذا لأنك أرملة لم تنهي عدتها بعد..

- لم أكمل عدتي..لكن أنهيت سجني من دوامة الشك..

بموته حصلت على اليقين!

- لكنك بكيته بحرقة وما زلت تفعلين..

تأملتها جليلة بعمق شارد..

- أجاهد أن أفهمني في فقدي له..
لن أنكر أحببته..
بل وأكثر..عشقته..
عشقت الشخصية التي اكتشفتها بانبهار في البدايات..
وإلا لما وافقت على الزواج منه..
قدم لي مشاعر جميلة ما كنت لأعرفها دونه..
حتى في وجهها البشع..عرفتها منه..
حلمت أن أشيخ بين ذراعيه..وأعتني به بكل جوارحي..

- أذاك أكثر مما أحبك!

مطت جليلة شفتيها بامتعاض..

- لن تصدقي..في كثير من الأوقات أسألني هل أحبني حقا!
ما أعرفه، الذي يحب من المستحيل أن يؤذي من يحب..
لم أصدق يوما مشاعره الفاترة..رغم تكراره لها قولا..
لم أستشعر دفأها أو صدقها..
تصرفاته السيئة منعتني من تصديقه..
لو تعلمين صديقتي كم خذلني..

كم جعلني أعيش معه كدجاجة نصف مذبوحة!

أنزف من كلي..

دون أن أموت..

ودون أن أعيش الحياة..

كنت قيد الألم..

ما أقساه من شعور..

لا تستطعين فعل شيء حياله..

عشت معه إحساس المحكوم بالإعدام، وبموته نفذه دون أن يمنحني حق الاستئناف!

أخذ ميراثي عن أبي، بعت كل مجوهراتي كي يفك ضائقاته المادية المتكررة واحدة تلو الأخرى..حاولت إرضاءه بكل ما أوتيت من حب وصبر..

- لا خير يرجى في رجل ينتظر إرث زوجته كي يقفز فشله كمسؤول سيء، اعلمي أن الرجل الذي تشتري رضاه عنك بمالك، لا هو برجل ولا أنت بامرأة حرة!

أسخف ما قد تفعله المرأة في حياتها، أن تنفقها بغباء في محاولة إرضاء رجل يذلها ولا يكترث لها!

- آه صديقتي..كم أذلني..كنت أعتقد أني بذلك أقربه مني لأفهمه أكثر..

- أتعتقدين أنه كان سيسلمك شفرة شخصيته؟ مطلقا صديقتي!

الرجل في غموضه مثل جبل الثلج، يظهر لك بعضه ويخفي كثيره.. ليوهمك بالثقة في معرفته!

- لم أفطن أني كنت أعبد له طريق خيانتي، فما عدت أناسبه بغبائي!

- لا تلومي نفسك أو تفقدي ثقتك بشخصيتك لأنه خانك، كلا..

أنت جميلة ومميزة كما أنت، لا تغيري شيئا من نفسك لإرضاء آخر يعاني اضطرابات شخصية، من يريدك فليحبك كما أنت!

- أتمنى لو عدت حيث كنت أنا، كي أبدأ بشكل صحيح وكي أنقذني من كثير من الندم..

- لماذا لم تحرري نفسك منه وهو قيد الحياة ما دمت تعانين هكذا!؟

مطت شفتيها بيأس..

- الزوجة دون أولاد تكون حرة في اختيار مصيرها..

أعتقد أن المرأة لا تفقد حريتها بالزواج. بل تفقدها حين تنجب!

ومع أولادي الثلاثة فقدتها تماما..صحيح أنه عاشق مهمل..لكنه في المقابل أب مثالي يحب أطفاله ويعتني بهم..لم أستطع أن أكون ظالمة مع صغاري وأحرمهم من عطف أبيهم وحنانه..ولم أستطع أن أكون قاسية وأحرمهم مني وأحرم نفسي منهم..

لذلك فقدت حريتي..أمومتي أفقدتني حريتي كامرأة!

- لم حزنك عليه إذن!؟

- حزني الكبير ليس عليه..فجيعتي الكبرى كانت طفلتي..

ولأكون صريحة معك أفجعتني خيانته أكثر من فقده!

حزينة على نفسي التي تغيرت..لأنه بقهره غيرني، أتذكرين حينما درسنا ابن خلدون ومن مجمل خلاصاته الاجتماعية قوله أن " الشعوب المقهورة تسوء أخلاقها"، وأنا بقهره ساءت أخلاقي وقيمي، أصبحت دائمة الكدر والحزن والصراخ..

حزينة على فقد الأب وليس الزوج، فجلال وجمال بموته فقدا مصدر حنان لن يعوضهما إياه أحد، رغم إهماله لمشاعري..كان أبا مثاليا، دائم العناية بهم..معظم وقته معهم..يحقق لهم كل ما يريدونه..يتابع دراستهم ويزرع فيهم أحلاما كبيرة..كنت اعتمد عليه كثيرا..كان يساعدني في تربيتهم ويلزمهم بترتيب غرفهم وجمع ألعابهم ومساعدتي في البيت كما يفعل هو..لذلك استطعت الاستمرار رغم جفائه العاطفي معي ورغم إحساسي بخياناته..أدعو الله أن يغفر له لوجه صلاحه كأب..

- جميل منك هذا الدعاء..محظوظ هو بك كزوجة صالحة في حياته وأرملة تصون عشرته بعد موته..وتأكدي لأنه حرص على إخفاء خيانته عنك فهذا يدل على مكانتك عنده، مقدرتهم التعددية على الحب لا تستوعبها مقدرتنا الأحادية..

-عزاء لطيف منك..

-بل حقيقة..كي لا نظلم عدم مقدرته على الدفاع عن نفسه..

تنهدت وفرت منها دموع سخية..

- ما لا أستطيع غفرانه هو أخذه لابنتي معه..شقيقة روحي..ونيستي!؟

لم أكن أنتظرها..كنا قد قررنا أن نكتفي بالولدين..

لكن إرادة الله فوق إرادتنا..

أعلم أن موتها أيضا إرادة الله..كانت هبة الله لي..وقد استعادها..

المنطق يخبرني أن كل نفس تموت بأجل، والأسباب مجرد وسيلة لتحقيق هذا الأجل..

المنطق يجربني على التوقف هنا، لكن جرحي وغضبي وتكثلي يجعلاني أحمله مسؤولية فقدي لابنتي..

كيف استهتر بابنته وجعلها تشهد خصامه مع عشيقته!؟الخصام الذي كان سبب الحادث!

آه يا وجع قلبي، كان السبب في حرماني من طفلتي..

سحر البنات سحر لا يعرفه إلا من حرم منه..

إنهن فرحة البيت وبهجته..

حلاوتهن تفوق حلاوة العسل..

طفلتي لونت حياتي بالألوان..

بسمتها تحملني لأطير في جولة مجانية في بلاد العجائب والفرح..

تطمئنني ببراءتها أن كل الخيبات محتملة..جعلتني أتحمل تغيره وسوء معاملته في السنوات الأخيرة..

أتعلمين مرة كنت على وشك أن أنهي حياتي! ذلك اليوم تشاجرنا، سخر من شقيقي، رفضت ذلك واعترضت، زاد غضبه، شتم أهلي وكل قبيلتي، حتى والدي المتوفى لم يتركه وشأنه من شتائمه البذيئة، فقدت السيطرة على نفسي وشتمته كما لم أفعل قبلا، شتمني وضربني..

بكيت ذلك اليوم بحزن فظيع، ندمت على زواجي من هذا الوغد الذي جلبت به الأذى والشتائم لعائلتي الأحياء منهم والأموات..سوء لسانه أدماني..

- لا أحد يراقب تصرفاته ويحسب كلماته مراعاة للآخرين، ندوسهم بأقدامنا دون إحساس أو رحمة، فكيف سنرحمهم من سياط ألسنتنا!

اليوم الآخر جلادنا، ونحن جلاده!

الأذى الجسدي الزوجي فظيع جدا، لا عجب أنه في الهند دفع النساء المعنفات من طرف أزواجهن إلى تنظيم أغرب عصابة تلقب ب"عصابة جولابي"، يتجمعن في الشارع، ليضربن بمكانسهن كل الرجال المارة في مشهد مضحك ومبكي، مع أني كنت أفضل أن يخترن كل يوم منزل إحدى الضحايا منهن، ليهجمن على زوجها في عقاب شرس بكل المكانس، بهذا فقط لا يظلمن رجال أبرياء آخرين..يعاقب الظالم و يستعاد حقها وكرامتها المهدورة!
ضحكت جليلة باستمتاع لتخيل مكانس النساء على رأس زوجها، لتغتم ملامحها من جديد..
- ما كانت المكانس لتجدي معه نفعا!

أدركت أني لن أستطيع التخلص منه أبدا، فكرت في التخلص من نفسي لأنقذني منه..وأنا أصعد فوق الكرسي في غرفتي لأسلم رقبتي للحبل، دخلت

صغيرتي كانت تبلغ آنذاك السنتين، نظرت إلي بفرح وهي تتقافز حولي، ظننتني ألعب، نظرت إليها من دموعي وعجزي، نزلت من الكرسي، ضممتها إلي، بقوة من كانت على وشك الغرق ووجدت طوق نجاة، التهمت قسماتها الضاحكة بالقبلات..

أقسمت أني سأعيش لأقتل البائس الذي قد يتجرأ على إذلال طفلتي..

شعرت أني قوية جدا..

لا أقهر..

اليوم أنا ضعيفة جدا دونها..

مكسورة أحتاج لجسدها الصغير كي أترمم..

جائعة لرائحتها الملائكية كي أصافح الربيع..

ضائعة أحتاج لجدائلها الناعمة كي تعيدني لخوض معاركي..

كانت جوهرتي التي وعدت الله بحمايتها من كل كدر..

الله أحبها أكثر مني..فأخذها ليحميها..

في لحظات يطمئن قلبي، أخبرني أنها هناك عند الله في آمان أبدي..

مرتاحة من آذى قد يطالها حينما تكبر!

المرأة اليوم تمتهن في الحياة من طرف الزوج الذي لا يتقي الله فيها..

ما عاد أحد يرأف بالقوارير!

كل من ماتت قيد طفولتها هي ناجية من قادم سيئ و رجل سيء!

لا أجدني أتحمل أن تطرق بابي يوما ووجهها متورم من يد وغد..

كنت سأكسرها له..!

- غريزة الحماية المرتبطة بأمومتك أنقذتك سابقا..وهي نفسها اليوم من سينقذك..

- كيف ذلك!؟

- أنت أم بعد! أم لولدين صغيرين..

دورك أن تحسني تربيتهما كي لا يكونا مشروع دمار لنساء غيرك..

دور كل أم اليوم أن تعلم ابنها احترام النساء، بداية بها وبأخواته وبنات العائلة والجيران وزميلاته وكل سيدة قريبة أو بعيدة..

دورها أن تعلمه أنها نصف المجتمع، لها فكر ومؤهلات وأحلام وحاملة مشروع، نحترمها كما هي لا كما نريدها أن تكون..ليست مجرد أثاث نتركه في البيت، نعود إليه حينما نتعب لنستريح!

الأم هي التي تعلم ابنها أن يحترم المرأة أو يمتهنها..

علميهما ألا يعبثا بمشاعر الفتيات، وألا يبيعا رضا الله بإتباع الشهوات وتكسير القلوب وتقديم الوعود الزائفة والانتقال من خيانة إلى أخرى..

هذه رسالة نبيلة إن نجحت فيها ستنقذين الكثيرات من خيبات مستقبلية!

لمعت عيني جليلة ببريق متحمس..

- نعم ذلك ما خططته لطفلي..رغم شغبهما، لا أعرف كيف سأتدبر وحدي أمر تربيتهما، سيزداد الأمر صعوبة بسن المراهقة الحرج، كانت هيبة فؤاد رادعة للعديد من الأخطاء..

-المراهقة مفهوم مستورد ليس له وجود في التاريخ الإسلامي، فالرعيل الأول الذي عايش الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، أنجز فتوحات في سن "مراهقة"..لا تبالغي كثيرا في حماية ولديك والتذرع بسن المراهقة، كوني أما قوية الشكيمة، الأم العربية قديما لم تكن هشة، كانت تقدم أولادها للصعاب في سن مبكر جدا، أم "صلاح الدين الأيوبي" منذ صغره وهي تحثه على الشجاعة، تكرر له دائما "أنجبتك كي تحرر القدس! "..

وذات القول كرره والده حينما سقط صلاح الدين صغيرا وبكى:" الذي سيحرر القدس لا يبكي، أمك أنجبتك لأجل ذلك! "، الشاب صدق والديه وحقق أمنيتهما..

صغارنا نحن من نزرع فيهم الشجاعة أو الجبن، ثقي في نفسك وثقي في جيناتك..وانتبهي لهما من الانترنت واللعب الالكترونية المميتة ومواقع التواصل الاجتماعي والتلفاز، الذي أصبح اليوم مروجا للخوف والسخف..راقبي كل ما من شأنه أن يلهيهما عن المستقبل والإعداد له بهدف طموح..

تحسرت جليلة..

- صدقت..تحديد هدف لك في الحياة في وقت مبكر من حياتك، يجنبك ضياع العمر في البحث عما تريده حقا، كي لا تستيقظ نادما بعد ضياع الفرص والحماس والصحة!

-ناجي الله دائما بخشوع في صلاتك، اللهم وكلت إليك تربية أولادي وهدايتهم ،فأنت مالك عقولهم وقلوبهم، وأنا لا حول لي ولا قوة، يا رب أهدهم و بارك فيهم وارضي عنهم وأرضهم، وارزقني برهم في الحياة وبعد الممات..

- ما أبلغه من دعاء! سأحفظه وأواظب عليه..

على فكرة، لم لم تتزوجي مع أنك حلم لأي رجل عاقل!؟

- منذ أن فسخت خطوبتي الأولى..

أقسمت ألا أسلم قلبي وآمالي لرجل..

فالسابق الذي وثقت به شيد لي أوهاما من رمال على شاطئ مهجور.. ليتركني أصارع المد والجزر كي أحمي بقاءها الوهمي..

كرهت كوني مغفلة تسيرني وعود كاذب..

ادعى أنه تخلى عني لأني أستحق الأفضل ولا أستحق حياة الفقر التي قبلت بها معه..

مع أني لم أتمنى غيره..

فطنت أنها ذريعة المنهزم..ذريعة من وجد غبية أفضل!

لذلك لم أأسف عليه، اغتظت فقط من غبائي..

فالذي يحبك لن يتخلى عنك تحت أي ذريعة، سيتمسك بك في وجه الفقر والمرض والحرب والعاهات وحتى الموت!

سيكون جدارك ليحميك من الهواء والغريب وتقلبات الدهر ونفسه..

الذي يحبك بصدق لن يهمه إلا أنت وكيفية إرضائك..

لا تشعري بالأسف علي لأني لم أتزوج وأنجب! أنا اخترت ذلك..

لا يناسبني أن أكون مغفلة في ظل رجل يبيع الأوهام، فضلت حريتي على بيت واهن من خيوط وقدر العنكبوت..

حبي للحياة كان أكبر من أي شيء آخر، أردت أن أسافر..

أن أكتشف مدنا ودولا جديدة، أردت أن أختبر كل المخاطر الممتعة دون خوف، أن أغير عملي إن فقدت فيه ارتياحي وكرامتي متى أردت ذلك دون أن أخشى فقدانه، لأنه تنتظرني أفواه لأطعمها وإيجار لأدفعه!

لم أرغب في الوقوع مجددا في الحب كي لا أظل سجينة الخوف، تعلقك بشخص آخر يجعلك حريصة على نفسك، والحرص يمنعك من المغامرات الممتعة، أكنت ستقفزين بمظلة من طائرة تبعد آلاف الأمتار عن الأرض التي ينتظرك فيها زوج وأطفال!؟

مؤكد ما كنت لتفعلي وإلا اعتبرك الجميع متهورة وغير مسؤولة! مع أنك ستكونين أكثر منهم قسوة في جلد نفسك، أما أنا سيغبطونني وسيمنحونني وسام الشجاعة والمغامرة!

لا أخفيك لو كنت عثرت على رجل صالح كنت لأترك كل هذا لأجله، لأستكين إليه بطيبة خاطر، ولأحظى بسحر الأمومة..

فالشيء الوحيد الذي أندم عليه، حرماني من ولد صالح يدعو لي حين موتي!

- لم لم تفكري في التكفل بتربية يتيم!؟ فظروفك المادية جيدة، ولك مقدرة كبيرة على الحب والعطاء والتربية..

- فكرت في الأمر، لكن اليتيم يحتاج إلى عائلة كبيرة ليخفي يتمه، وأنا أصدر اليتم!

في تلك المغامرات والأسفار كنت أفتقد رفقتك! فظروفي المادية لم تتيسر إلا بعد عملي، كنتِ متزوجة آنذاك، وزوجك فرض عليك حظر التجول!

- ذكرتني بأحلامي التي ظلت حبيسة التمني..جاهدت بكل قواي لتحقيق البعض منها..لكن دائما للواقع وجهة نظر أخرى قاسية ولا مبالية..
الواقع يحترف الدُّوس المتعمد على الأحلام..
كأن الحلم جنحة قانونية في دولة تلتهم حقك بأخضره ويابسه..
ولا تترك لك إلا غلة تبن كالبهائم مع أن تلك بدورها تعلب لتباع في سوق الماشية!
جاءت اليوم كورونا لتؤجل كل الأحلام..
وقد لا نعيش لنحقق أي شيء منها!
حدقت فيها نوال بصمت، فعادت جليلة لتشرد في السقف مجددا..
- تضرب بذراعيك موج الحياة بإصرار من يحب العبور إلى الضفة الأخرى، تارة مستمتعا وتارة محاربا شرسا للأمواج الشاهقة المتتالية..
تخطط لوصول ناجح لتكتشف أماكن جديدة..
ربما كنت تخطط للحصول على منزل..أو سيارة أو سفر أو زواج..
ربما لم تكن لك خطط أصلا..

تعيش يومك بجميله وسيئه، تجاهد فقط لتبقى كينونتك البشرية تمارس فعاليتها بالعيش..
وأنت على عتبة الفقر لا تشعر بنعم أخرى ترفل فيها دون أن تدري..
حاجتك المادية طغت على ما دونها لتبخس النعم الأخرى حقها..
حتى جاء وباء كورونا ليعيد لنعم كثيرة قوتها ويستشعر الجميع وجودها بحرمانه منها..
وأبسط هذه النعم، أعظمها..
نعمة الهواء..
نعمة الأوكسجين المجاني الذي أصبح في زمن كورونا أغلى ما في الحياة..
إن احتوته رئتاك فأنت محظوظ وغني وحي..
وإن خلت منه فأنت فقير وميت!
اليوم تعلمنا أنه لا معنى لتأجيل شيء أو فعل أو حلم في حياتك..

إما أن تفعله..

أو لن تفعله أبدا!

الحياة حاسمة بواقعها وأحداثها..

وعليك أن تكون حاسما أيضا فيما ينبغي عليك القيام به، لأنه قد لن تسنح لك الفرصة أو الحياة للقيام به..

إنه الوقت المناسب كي تعيد حساباتك مع النفس و الأشخاص والمحيط..

كم من واحد تردد ليترك كل شيء خلفه ليصعد في سيارة أو قطار أو طائرة، في سفر يستعيد فيه بعضا من حيويته ويقتل به رتابة حياته..

حتى جاء وباء كورونا بحجره الصحي وحالة الطوارئ وإغلاق الحدود بين الدول وحتى المدن، غافله ليجد نفسه سجين بيته بحمولته النفسية التعبة السابقة واللاحقة، لدرجة أن البعض عجزوا عن تحمل ذلك، ففضلوا الانتحار خيارا!

كم من واحد أجل زيارة والديه أو أحد أفراد عائلته، حتى باغته فيروس كورونا لتخطفه منه دون أن يراه، أو يطبع على جبينه البارد قبلة لوعة الفراق الأبدي!

كم من واحد انغمس في ملذات الحياة..

وثق في عنفوانه وشبابه فأجل انضباطه بدينه وتوبته إلى عمر لاحق متقدم، فكل السنوات بعد أمامه!

لكن زيارة كورونا لرئتيه، سدت منافذ الهواء والحياة إلى جسده..

ليغادر الحياة في عز شبابه ولهوه وندمه وصدمة أهله!

وجمت نوال وظلال غيمة متحسرة في عينيها..

- لا تؤجل شيئا في حياتك.. فالحياة تستمر وتمضي ولن تنتظرك..

وفي المقابل الموت متربص بك وينتظرك..

بل وسيأتيك على عجل!

سيأتيك على أجل، فكن بانتظاره..

انتظره بما استطعت من زاد ينفعك في حياتك الأخرى، فأفظع ما يمكن أن تفعله بنفسك، أن تجعل مكوثك في الحياة جحيما، وعلى ناره توقد جحيما ثانيا لآخرتك!

- أشعر أن حياتي بدأت حينما عرفت الموت!

- هيا حبيبتي، استيقظنا باكرا وأنهكنا مشاعرنا بحديثنا دعينا ننام قليلا، فقد تعبت..

لفورها غاصت نوال في نوم عميق، لتحذو جليلة حذوها وتستسلم لنوم جميل..
رنة الهاتف أيقظتها من استرخائها الجميل، أسرعت تجيب قبل أن توقظ نوال، خرجت بسرعة لبهو الشقة، إنها شقيقتها جميلة..
- ألو مرحبا أختي..
- كيف حالك حبيبتي ! لم أشأ الاتصال بك كي تنعمي بالراحة أكثر..أنا أمام شقتك!
وضعت جليلة عينها على عدسة الباب لترى شقيقتها محملة بوجباتها المعدة..
وضعت كمامتها وعقمت يديها قبل أن تفتح الباب على مصراعيه مرحبة بأختها..
- دعيني أدخل بهو الشقة فقط!
- قلت لا! لن أسمح لك بالمغامرة بنقل العدوى لأسرتك ولأمي..
- لم عيونك متورمة!؟ ألن تكفي عن البكاء!
- كنت أتحدث إلى نوال حديثا ذا شجون..
ظهرت الدهشة والارتياب على ملامح جميلة..

- نوال من!؟
جليلة باستنكار..
- صديقتي أيام الجامعة، أنسيتها!؟
جميلة بخوف..
- كلا لم أنسها، هل تحدثت إليك عبر الهاتف!؟
حركت جليلة رأسها بالنفي وهي تشير إلى غرفة النوم..
- كلا! جاءت البارحة لتقيم معي، بصعوبة أقنعتني لأسمح لها بالدخول.. تعرفين صرامتي في التقيد بالعزل مخافة نقل العدوى إلى غيري!
أطلقت جميلة صرخة مكتومة..امتقعت ملامحها..
- شتت..بهدوء إنها نائمة..ستوقظينها!
تركت جميلة القفة في باب الشقة، حدقت في جليلة بعيون دامعة..
- هل حرارتك بخير؟ أتواظبين على تناول أدويتك!؟
- لا تقلقي، تناولت الدواء بعد صلاة الفجر، أحبت نوال كثيرا فطائر أمي..
- اعتني بصحتك..سأعود إليك غدا..اشتقت ضمك..
- ارتاحي شقيقتي، لدي طعام أيام، الثلاجة ممتلئة عن آخرها، جزاكم الله عني كل خير، سأعتاد تدليلكم، ولن أرغب في الشفاء!
اختنقت جميلة بدموعها قبل أن تستدير مغادرة وشهقاتها تتردد في صدى سلالم العمارة!
تسمرت جليلة مكانها مستغربة انفعال جميلة، المشهود لها بالقوة والجلد، لطالما كانت جليلة أكثرهما رقة وهشاشة، وأكثرهما شبها لوالدتها المرهفة..

حملت القفة لتقفل الباب، رتبت العلب في الثلاجة، وشعرت برغبة في الاستحمام، وقبل أن تدخل وضعت الهاتف على الصامت كي لا تستيقظ نوال إن اتصل بها أحد..
استمتعت بحمامها الدافئ بعدما ملأت حوض الاستحمام وعطرته بزيوت نباتية منعشة الرائحة، استرخت أعصابها، أغمضت عينيها وتخيلت نفسها مستلقية على صفحة بحر ناعمة، تسمع النوارس المحلقة فوقها، يدغدغها صوت الأمواج البعيدة، مع دفء الشمس الصباحية التي تقبلها باستحياء..
لا تعرف الوقت الذي أمضته وهي تحلق في هذا الموج الناعم..
سمعت جرس الباب، غريب لا يزورها أهلها مرتين في اليوم! خفت في ارتداء روب الحمام، ولفت بسرعة فوطة على شعرها المبلل..
ساعدتها عدسة الباب على رؤية جارتها السيدة حبيبة..
- كيف يمكنني مساعدتك خالتي حبيبة!؟
- هل أنت بخير ابنتي!؟ والدتك اتصلت بك أكثر من مرة، لا تجيبين على الهاتف قلقت عليك..
- آه كنت استحم، شكرا لك سيدتي..جزاك الله كل خير..
- ألف مرحبا ابنتي، شافاك الله وعافاك، إن احتجت أي شيء أرجوك لا ترددي في الاتصال بي، لديك رقمي..
- بارك الله فيك، أكرمت ووفيت، شكرا لك..
أسرعت إلى الهاتف المضاء، كانت والدتها..
- متأسفة أمي..كنت أستحم..
- الحمد لله ابنتي..تملكني الجزع عليك..هل أنت خير!؟
- نعم أمي لا تقلقي، أنا بألف خير..
اختنق صوت أمها بالبكاء..

- لا تفجعي قلبي عليك بنيتي، هل أنت فعلا بخير!؟
- ثقي بي أمي..أشعر أني بخير منذ مجيء نوال البارحة..أشعر أني أتحسن..
وصلتها شهقات أمها الباكية..
- ما بالكما اليوم مع البكاء أمي..هل أنتما بخير!؟الولدين بخير دعيني أتحدث إليهما!
لم تسمع صوت أمها، وصلتها خشخشة قبل أن تسمع صوت ابنها جلال المتلهف.
- مرحبا أمي كيف حالك!؟ حاربي كورونا بسرعة أرجوك، اشتقنا إلى العودة إليك وإلى غرفتنا..
عاتبته جليلة بحنان..
- ألهذه الدرجة تعبت من دلال جدتك!؟ لا تخبرني أن أمي تعصرك كل شوق بجنون وتغرقك في دموعها و تهتف لك منتحبة (قلدتها)كم تشبه جليلة!!
ضحك جلال وبصوت خافت..
- كأنك شاهدت ما يحدث من عدسة الباب، أنقذيني من العصر اليومي أمي!
ضحكت حتى أعماقها الكئيبة..
- سنلتقي قريبا ولدي، أبلغ قبلاتي لأخيك واعتني بكليكما، أشعر بالبرد علي ارتداء ملابسي..ضم والدتي عني، وأكد لها أنني بخير..
- حسنا أمي إلى اللقاء، سعيد جدا أن الفرح عاد إلى صوتك..نحبك ماما..

أرسلت إليه القبلات وهي تسمع بكاء والدتها..الحمد لله أن حنانها الجارف لم يفسدها ولم ترثه منها كله بذات التدفق..تلقبها دوما بالممثلة المصرية عبلة كامل لأنها سريعة التأثر ودائمة البكاء..
ارتدت ملابسها على استعجال، دون أن تستيقظ نوال..
انتهت من صلاة الظهر في غرفة الجلوس، وانهمكت في ترديد الأذكار والدعوات لروح طفلتها وزوجها..
- هل تذكرتني بالدعاء!
أجزعها الصوت لانغماسها في الدعاء..
- بطريقتك المفزعة في الظهور لن أستطيع نسيانك حتى لو حاولت!
كررت سؤالها بإلحاح..
- هل تذكرتني بالدعاء! أتذكرين أيام الجامعة كيف كنا نضع علامة بالحبر بين مفترق السبابة والإبهام على ظاهر يدنا كي نتذكر شيئا مهما..ضعيها كي لا تنسيني..
- لم أنهي أدعيتي، سأفعل الآن..ذكرتني بحلمي المتكرر عن والدي رحمه الله، كلما انغمست في الحياة سامحني الله ونسيته من دعائي، حضرني في الحلم مرددا"هل تذكرتني بالدعاء"!
- رحمه الله وأحسن إليه وكل موتانا، لست في حاجة الآن إلى علامة الحبر، كلما تذكرت والدك تذكريني! محظوظ والدك.. فكما قرأت أن الله يستحيي أن يعذب والدا تحت الأرض، وولده يدعو له فوق الأرض..

تعلمين أنني يتيمة ووحيدة ولا أحد لي غيرك..

عديني أنك ستستمرين في الدعاء لي!

-أعدك صديقتي..

-محظوظة أنا أيضا بصداقتك..
صمتت جليلة لتنغمس في أدعية صامتة خاشعة..
بعد انتهائها طوت السجادة وثوب الصلاة لتضعهما على الطاولة الصغيرة قرب الأريكة، ابتسمت في وجه نوال المريح والمستريح..
- كنا محظوظتين معا ربما لأننا وقتها كنا فقيرتين معا..

فالصداقة الحقيقية هي التي تنمو في بيئة متكافئة اجتماعيا، لا تلوثها مصلحة أو حسد..

- بل أعتبرها كما قال الشيخ محمد الغزالي:"الصديق العظيم يقود صديقه إلى النجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة"..

فمن يرسم لك طريق النجاح من كبوة فشلك صديق..

ومن يخاف عليك من شيطان نفسك صديق..

ومن يقدم وجهه للريح كي يحمي رأسك العاري صديق..

ومن يهرع لحملك لحظة سقوطك دون أن تناديه صديق..

- كما فعلت أنت حينما احتجتك..

- احتياجي لك أكبر..

- كيف!؟

أقبلت إليها نوال تضمها بعطف ولطف..همست في أذنها..

- تذكريني بالدعاء..هيا دعينا نعد بعض الطعام، جائعة جدا..

راقبت جليلة مغادرتها إلى المطبخ بجسدها المكتنز وخطواتها البطيئة ويدها مستندة على الحائط..تشعر برسالة صامتة في عينيها البنيتين، كلما تأملتها أكثر لتفهم رسالتها، أسدلت ستائر أهدابها السوداء لتخفيهما وتهرب بالأسئلة إليها كي لا تعبر منطقتها وتغرقها جليلة بأسئلة شخصية مربكة، لطالما أحبت نوال الغموض، تتحدث عندما تريد، وجليلة كانت من النوع المريح المنصت الجيد، لم تكن ممن يحب محاصرة الطرف الآخر بالأسئلة..

تبعتها إلى المطبخ لتمسك بالموز، قدمت واحدة لنوال وأخرى لنفسها..

- تفضلي تناولي الموز فاكهة الفلاسفة ريثما أسخن الطعام فكورونا أحد علاجاتها الأطعمة الساخنة، والموز نحن في حاجة إليه للضحك وتعديل المزاج، فالجسم يحول مادة التريبتوفان إلى هرمون السعادة السيروتينين..فمرحى للسعادة..تفضلي أخرى..

أمسكت نوال بالثانية بجذل منشرح..

- الآن فهمت لم القردة سعيدة دائما!

ضحكتا معا بمرح بهيج..

تأملت جليلة العلب المختلفة المليئة بالطعام، اغرورقت عيناها بالدموع..

- لا يوجد أروع من العائلة، حينما علمت أمي بإصابتي بالفيروس، أصرت على البقاء معي لأجل رعايتي، لكني رفضت وأقنعتها أنها ستساعدني أكثر إن كانت بعيدة عني وبخير، أشعر أنها ترغب في مهاتفة العالم المغربي منصف السلاوي في أمريكا لتستجديه الانضمام إلى طاقمه العلمي لتسريع إيجاد لقاح فعال لفيروس كورونا كي تنقذني!

أما أختي جميلة فتحولت إلى معالجة بالطب البديل، متخصصة في الفيروسات والزكام، لم تترك مجموعة في الفايسبوك إلا وطرحت سؤالها عن كيفية مواجهة كورونا من غير البروتوكول العلاجي!

بحثت في الموسوعات الطبية للعلاج بالأعشاب، فكانت تهاتفني كل معلومة..

(قلدت نبرة أختها المحذرة)

اسمعي سأجلب أوراق شجر الكاليبتوس إنها مهمة جدا في تنظيف الجهاز التنفسي..

لا تنسي أن تقومي ليلا ببخار الزعتر واحرصي ألا يلفحك تيار هوائي، مباشرة التحقي بسريرك ولفي حولك الأغطية..

إياك أن تكثري من الشيح، فقط نصف ملعقة صغيرة في فنجان ماء ساخن وغطيه كي لا تطير زيوته الطيارة اشربيه قبل النوم فهو مفيد للرئتين ومهدئ للأعصاب، تناوبي عليه هو واليانسون..

حساء الدجاج بالخضر كليه كله بعد تسخينه لا تتركيه ليفسد!

لا تنسي إضافة بعض أعواد القرنفل وشرائح الليمون للماء الدافئ الذي تتناولينه..

لاتقلقي من الكاليبتوس والشيح فقد استعملا قديما في علاج الملاريا والكوليرا، فقط لا تكثري منهما!

يالله من كثرة تكرير نصائحها حفظتها، أشعر وكأنهما على وشك اكتشاف ما يقضي على كورونا!

لجلجت ضحكة نوال وهي تتابع باستمتاع تقليد جليلة لشقيقتها..

- لا تنسي أن المرأة من اخترعت السترة الواقية من الرصاص وسلالم النجاة وماسحات زجاج السيارات، الحاجة إلى الحماية هي أم الاختراعات..

- صحيح، ما أثار ذهولي في المغرب أن الاختراعات شهدت قفزة نوعية في فترة وباء كورونا، في الوقت الذي كان العالم كله يقرصن طائرات محملة بالكمامات وملابس التعقيم، المغرب أنتج وطنيا كفايته من الكمامات بل وصدر للدول الإفريقية وكل العالم، ناهيك عن اختراعه لأجهزة التنفس والتعقيم والعديد من الاختراعات الأخرى..

أتمنى أن تخصص الدولة ميزانية مهمة للبحث العلمي، فزمن الوباء علمنا أن العلم والعلماء والأطباء سلاحنا لمواجهة هذه الكارثة الإنسانية..

علينا نحن الأمهات أن نربي جيلا يحب العلم والدراسة لأنه عتاد البقاء للأجيال القادمة ضد حرب الفيروسات التي أنهكت وأعجزت الدول العظمى..

ذكرتي بأغنية جميلة صادفتها في الفايسبوك واحتفظ بها في هاتفي توثق لهذه المرحلة..

تحدثت وأصابعها تبحث بخفة عن الأغنية على شاشة هاتفها، لمعت عينيها وهي تكبس إشارة البداية وتبتسم لصديقتها لتنتبه لكلمات الأغنية..

جات كورونا قلنا غاتفنينا جات كورونا قلنا غا تصفينا

حبست أرباح ودات أرواح غلقت أبواب وفرقت أحباب

هزمت أمصار وقزمت أقطار

جات كورونا قلنا غاتفنينا جات كورونا قلنا غاتصفينا

شفنا ناس مشاو مارجعوش، شفنا صغار ركبوا مافهموش

شفنا رضع تخنقوا ما سبعوش شفنا جنايز تدفنو ما سمعوش

قتلنا الخوف لي يخطف الشوف وقلنا الجوع غايكل الجوف

جا ملكنا ريح قلوبنا ستر جيوبنا وفرج غيومنا

خرج ووصل آمر وفصل ولي غش حصل

ملك افريقيا المع اكرم ووفى وارفع ابحث عطى وانفع

المغرب وقف شديد في وجه الوباء

تحدى نفسو من جديد وللعلم للبقاء

صنع كمامة بيدين ولادو واخترع ما يعاون بلادو

صدر لحبابو وبعادو وبالتضامن وقف وتادو

وزاد رفع تاريخ جدادو

ثقتنا في بلادنا كبرات وفاضت

وغيرتنا عليه شعلات وزادت

المغرب وقف شديد في وجه الوباء

تحدى نفسو من جديد وللعلم للبقاء

-أغنية معبرة..فعلا للعلم البقاء..

غمزتها بشقاوة..

-أخبرتك..

- اممم رائحة هذا الطبق شهية جدا..

أشارت جليلة إلى قطع الخبز الصغيرة التي تفور فوق قدر على لنار..

- هذا طبق " الرفيسة" تعلمين أنه طبق النفساء عندنا لما يحتويه من مقويات، فهو معد بالحلبة والبصل والعدس والثوم وزيت الزيتون والدجاج البلدي مع التوابل وسحر "رأس الحانوت" المعد من أجود وأنفع التوابل، هذا المزيج يصب على فطيرة القمح المنسمة بالزعتر والتي تكسر إلى فتات صغير ، أغلب المناطق يفضلونه بفطائر الملوي المورق، لكن أمي تفضل فطيرة القمح لأنه صحي وسريع الهضم..بعد زواجي ومغادرة بيت والدي رحمه الله، لم تتوقف والدتي عن الاعتناء بي بأطباقها المدهشة واللذيذة..أمدها الله بالصحة والعافية وطول العمر..

- عجيب كيف حافظت على رشاقتك بين هذه الأطباق الشهية!

ضحكت جليلة حتى توردت وجنتيها..

- رغم أنني ربة بيت ومنهمكة جدا مع الصغار إلا أنني حريصة على المشي ومنخرطة في ناد للإيروبيك لكنه توقف حاليا بسبب كورونا..

أخبريني كيف سمحت لنفسك باكتساب هذا الوزن أذكرك دائما محبة للرشاقة والرياضة!

غمزتها نوال بمشاكسة..

- ليست الدهون كلها سيئة وإلا ما كانت لتشكل 60 في المائة من وزن الدماغ..فهل أنا أفضل من الدماغ البشري! (ضحكت)حسنا اكتسبت الوزن بعد الحادث، وهذه نتيجة الأدوية والأكل والتوقف عن الأنشطة الرياضية..

- حسنا طبقنا أصبح جاهزا، وكذلك شاينا..

بعد الانتهاء من تناول وجبة الغذاء، اقترحت نوال مشاهدة فيلم في غرفة الجلوس لتمضية الوقت وكسر الملل..على إحدى القنوات وجدت فيلما أجنبيا مترجما، أطلقت صرخة ابتهاج..

- واو أريد أن نشاهد هذا الفيلم معا! "قائمة الدلو" إنه من أروع الأفلام التي شاهدتها..من بطولة ممثلي المميز مورغان فريمان رفقة الممثل الرائع جاك نيكلسون، يحكي قصة رحلة رجلين مع مرض مميت على مشارف نهايتهما، يقرران تحقيق قائمة من الأمنيات قبل الموت..

سيعجبك..دعينا نشاهده..

استغرقت جليلة في فرجة ممتعة منتشية، ترك الفيلم أثرا عجيبا في نفسها، أيقظ فيها وجعا دفينا..

- هل سأستطيع بدوري أن أحقق قائمة أمنياتي قبل موتي!؟أعرف أنني مقيدة إلى أطفال ومسؤوليتي ستزيد أكثر وأكثر..لن أستطيع تحقيق شيء مما هو في صدري!

- لذلك كنت حريصة على تحقيق كل ما أريده في شبابي، ولست متأسفة أنني سجينة اليوم في كرسي متحرك، فقد عشت الحياة كما يجب!

كل واحد عليه أن يحدد قائمته الخاصة بأمنياته قبل الزواج..

لأنه بعدها لن تظل لا أنت ولا قائمتك..

ستنشغل بمتطلبات الصغار والبيت وفواتير الماء والكهرباء والقروض ومصاريف السيارة والمرض ووو..

لن تجد متسعا لحلمك..

إذن حققها قبلا وإلا لن تفعل ذلك أبدا!

ما رأيك أن تكتبي لائحة أمنياتك الخاصة، ربما يزورك الحظ وتحققين شيئا منها..

فالغيب لا يعلمه إلا الله..اجلبي مذكرتك الخاصة كي لا تضيع قائمتك!

- فكرة رائعة! ليتك أخبرتني بذلك قبلا، لكن مع ذلك ومع استحالة تحقيق شيء منها في الوقت الراهن، كتعزية لنفسي أو حتى كتعذيب لها، سأدون قائمتي الخاصة..

ودون تردد أسرعت جليلة إلى خزانتها لجلب مذكرتها وقلمها الأسود الذي تحبه..

شرعت تسجل باسترسال أمنياتها السجينة، كأنها سيل بعد فيض..

- الحج والعمرة وزيارة القدس العربي.

- تغيير حياة أشخاص يائسين دون أن يطلبوا ذلك.

- أمضي بولديّ وأمي في رحلة في ربوع الوطن.

- الحصول على منزل لا تصيب الرطوبة جدرانه..مليء بالنوافذ..

تدخل الشمس إلى كل أركانه..في مكان هادئ لا تخفي عني المنازل المجاورة الشمس والطبيعة الممتدة أمامي.

- التزحلق في أطول منزلق مائي في مدينة ملاهي.

- زيارة محمية طبيعية ورؤية الحيوانات عن قرب.

- النوم في يخت وسط البحر والنجوم.

- رؤية أطول الشلالات.

- تجربة التحليق في المظلة.

- الاستحمام في بحيرة دافئة طبيعيا.

وأهم أمنية لي هي زيارة كل العالم في ثمانين يوما أو عاما لا يهم..
المهم أن أحقق هذه الأمنية..
فمن المحزن جدا أن أغادر العالم دون أن أتمكن من رؤية أجمل مناظره الطبيعية..
من المؤسف أن أغادر وأنا مسجونة في زاويته البائسة..
من المؤسف أن أعيش في ذات المكان وأدفن فيه حية وميتة!
انتبهت، توقفت عن الكتابة ورفعت رأسها المنكسر إلى نوال..
- كما أنا اليوم في منزل ضارب في الرطوبة والعفن، تعبت من تنظيف الجدران والسقف، لا تمر أيام حتى يعود الأمر كما كان، ويزداد الأمر سوءً في الفصول الرطبة، أشعر أنني أفقد صحتي في تنظيف الجدران وإعادة

تنظيف المطبخ والملابس في الدولاب الخشبي، تعبت حقا..أرغب في الشعور بالحياة وليس بشقائها وبؤسها!
أتنفس هنا بصعوبة..
كل يوم أمضيه في هذا البيت الشقي هو موت جديد لي..
أشعر بفشل فظيع..

- الفشل المحفز مهم كي يزداد إصرارك على النجاح، الفشل المميت هو المهلك لأنك تتوقفين فيه عن المحاولة، مهمتك السعي إلى الأمور بحزم وإلحاح وإنجازها بإتقان وتفان، هذا ما سيفتح لك أبواب النجاح دونه ستظلين حبيسة التمني العاجز...

لم لم تبحثي عني!؟

فغرت جليلة فاهها من الدهشة..

- وما علاقة سؤالك بفضفضتي عن مأساتي!؟

ابتسامة غامضة عبرت ملامح نوال الشاردة..

- كنت أنتظر عثورك علي، جمعت لك بعض الأغراض الخاصة أسفل سريري..

تنهدت جليلة بأسف وتحسر..

- مذ ضاع هاتفي، كرهت مدى اعتمادي عليه، كيف لآلة صغيرة أن أأتمنها عليك وعلى رقمك وعلى العنوان الذي أعطيتني إياه وسجلته في مذكرة الهاتف، أحسست أني ضعت حينما ضاع، كان رقمي آنذاك دون عقد مع شركة الاتصالات، رفضوا إعادته إلي، أقسمت ألا أعتمد عليه مجددا،

وبفضلك عدت إلى المذكرة..كنت أعلم أنك لا تعرفين محل شقتي الجديدة، لأنك لم تزوريني فيها، آه صديقتي، لم لم تسألي عني في منزل أهلي فأنت تعرفينه!؟

عبست ملامح نوال حتى أصبحت قاتمة..

- فعلت مباشرة بعد ولادة سارة، لم أجد والدتك، كانت ترعاك، بعدها بأيام تعرضت للحادث..أتذكرين آخر حديث لنا!

- نعم كيف لي أن أنساه! كان بعد ولادتي لسارة، أخبرتني أنك تحملين لي خبرا سارا، وضحكت وأنا أخبرك وأنا أيضا، فرحت جدا بالخبر، أحببتها منذ عرفت أني حامل بفتاة، هتفت لي هذه أجمل بشرى سارة، سميها سارة لأجلي..وفعلت، أسميتها سارة..إنها ابنتنا معا..أردتها ابنة لك..سرق مني الهاتف أثناء ذهابي لتلقيح سارة..

كدت أجن..حتى رقم الواتساب لم أحتفظ بشريحته فضاع الحساب مني..والسارق قرصن حتى بريدي الالكتروني..وأنت للأسف لم يكن لديك حساب فايسبوك لاعتبارك إياه مضيعة للوقت..

انتحبت بحرقة كبيرة..

- أردتك أن تضميها..أردت أن تعلمي أنني حققت طلبك وأسميتها سارة..سارتنا..سارتي غادرت دون أن تريها!

انتظري سأجلب لك صورتها..

هرعت إلى غرفة نومها وجلبت ألبوم الصور..

-أرأيت سارتنا!؟ ما أعذبها! هي أرق من أن تظل في الأرض!

ضمتها إليها نوال بقوة..

-إنها سارتنا..إنها ملاك طائر معي..

مسحت جليلة دموعها وهي تتأمل نوال..

- كيف تعرضت للحادث!؟

توتر جسد نوال، سحبت نفسها من ذراعي جليلة، جلست بجسدها المكدود على الكرسي..

- كنت عائدة من التبضع، كنت سعيدة جدا، اقتنيت بعض الأغراض لك و للصغيرة، وضعتها في حقيبة سيارتي، وقبل أن أنطلق بها كان ذلك آخر ما تذكرته، استيقظت في المستشفى، أخبروني أن شاحنة اصطدمت بي من الخلف، لو اصطدمت بي وأنا بعد أرتب مشترياتي في حقيبة السيارة لكنت ميتة لفوري، جلوسي خلف مقود السيارة وحزام الآمان خففا نوعا ما من حدة الحادث، رغم ذلك تعرضت لرضوض في الرأس وإصابة بليغة في عمودي الفقري وكسر في رجلي اليمنى..خضعت لأربع عمليات على عمودي الفقري، كنت أنتظر اتصالك بفارغ الصبر، مع أني لم أرغب في الاتصال بك وإخبارك بحادثتي وأنت بعد نفساء، لم أعلم أنك أضعت الهاتف، وزوجك أصلا ما كان يطيقني..

كنت وحيدة جدا..

ليس لي سواك!

أسرعت إليها جليلة تضمها ودموعها تخنقها..

- حبيبتي كنت تصارعين الموت وتحملين هم راحتي..دائما تؤثريني على نفسك وإن بك خصاصة..كم بي رغبة أن أكون جوارك وأخبرك أنك ستكونين بخير..

تنهدت نوال بارتياح دامع..

- كنت أعلم لن تنسيني، ولم أفقد صلاحيتي في قلبك..

ضحكت جليلة وهي تنظر إليها من بين دموعها وسائل أنفها..

- صداقتك وأنت كالعسل في قلبي صديقتي، لا تفقدون صلاحيتكم أبدا!

- لازلت أحتفظ بأغراضك أسفل سريري، ستأخذينها حينما تزوريني، فهي في انتظارك كما كنت أنتظرك!

- تعالي نصلي صلاة العصر بعدها نرتاح قليلا في الشرفة ونتعرض لبعض أشعة الشمس فهي تحفزإإفراز هرمون السيروتونين المسؤول عن تحسين المزاج والمساعد على الشعور بالهدوء والتركيز..

بعد الانتهاء من الصلاة والدعاء، غادرتا إلى الشرفة، استلقت كل واحدة على كرسيها في مواجهة الشمس الدافئة، استسلمتا لصمت مريح..

فلغة الصمت حديث صاخب بين من تآلفت أرواحهم..

يكفي أن تلتقي أعينهم ببريق ابتسامة..

لتأكيد حديث لم يتم!

رنة هاتف من شرفة مجاورة سحبتها من سلامها الداخلي، ارتجفت..

شحبت لتعود بها ذاكرتها أدرجا إلى الوراء..

آه من تلك الرنة القاتلة..كلما غافلتها من هاتف آخر..

دوت كرصاص موجع في صدرها..تصفع هشاشتها..

تكره تلك الضعيفة داخلها، التي تغمض عينيها بحنين لتوهم نفسها بشوق جائع أنه المتصل..

تبا له ولتلك الرنة..ستجلد قلبها..ستشتمه..

وسترفع دعوة قضائية على شركات كل الهواتف ليتم حذفها من لائحة الرنات..

لا ذلك لن يجدي..

ستشتري داء الصمم لتشربه جرعة زائدة لتلك الهشة داخلها، كي لا تسمعها وتتركها تمضي في درب النسيان!

كمستيقظ من غفوة مسكرة استدارت إليها نوال لتحدق بها مطولا بفراسة قلب يهتم لها، كأنها علمت بحديثها الملغوم..

- أتشتاقينه!؟

- اعتيادي هو من يشتاقه..

هو من يشعر بالغربة دونه..

حضرني ما قاله محمود درويش "الغربة هي أن تسافر بعينيك بين الحاضرين فلا يبصر قلبك إلا ذلك الوجه الغائب"..

ابتسمت نوال بشحوب ومرارة..

- هذه غربة عاطفية عابرة ومقدور على تجاوزها بفرص جديدة..

الغربة الوجودية الحقيقية أن تكون يتيما في القبر دون علم ينتفع به أو صدقة جارية أو ولد صالح يدعو لك..

الغربة الحقيقية أن تكون بموتك أقفلت كتاب حسناتك..

المحظوظ من يترك واحدا مما ذكر كي تتجدد عليه الرحمات بعد موته..

لا تترك حياتك يتيمة من خيرك..وكي لا تموت يتيما، ازرع قيد حياتك ما استطعت وانسه..فحصادك هناك سيكون الأسعد"..

- ونعمه من حصاد، للأسف نترك الحياة بخيباتها تلهينا عن مرورنا العابر في الحياة..

- لو علم الخائن ما ينتظره هناك سواء كان رجلا أم امرأة، لماتت شهوة خطيئته من شدة ذعره..الحياة أسهل بكثير من أن تبذر بشكل سافر على أذية النفس والآخرين!

- قلب النساء دائما الأكثر عرضة للأذية..

- أتعلمين أن حجم قلب المرأة أصغر من حجم قلب الرجل، كما أنه ينبض بشكل أسرع من قلبه..وأعتقد أنه لهذه الخاصية العلمية المرأة إن أحبت لم يتسع قلبها لغير رجل وحيد، وحده كاف ليسرع نبضها، أما الرجل فسعة قلبه تسمح له بالاحتفاظ بكل من عرفهن سابقا ولاحقا وكذا رفيقات العمل والقطار والحافلات وكل من هبت ودبت، لأنه كائن بصري، لذلك فدماغه ينشط عند رؤية مثير كالمرأة،..بل لكل من يراهن..في حين أن المرأة كائن

يعتمد على حاسة السمع، لذا هي تهتم بالعواطف..بالكلام العذب وتبتئس لعكسه.. لهذا جعل الله له أوتارا صوتية أطول من الأوتار الصوتية لدى المرأة، كي يتحدث كثيرا ويستولي على قلبها..

لا تبتئسي..

فالرجل لا يسلم قلبه لامرأة وحيدة..

أعتقد أن المرأة الوحيدة التي لن تخشى خيانة زوجها هي ملكة انجلترا، لأن قانونهم يمنع منعا كليا إقامة علاقة غرامية مع زوج الملكة، ومع ذلك لن تسلم فالقانون وضع ليخرق!

- ما عدت أريد الحديث عنه أو عن الرجال..تحدثنا كثيرا عن الذكريات السيئة..

- لأن المخ يقوم باسترجاع الذكريات السيئة أسرع من الذكريات الجميلة، أنت تختصرينه لي ولنفسك..

وتعيشي فقط ذكرياتك الجميلة كي تلفظيه..

لا تحاولي كتمه داخلك ومكابرة جرحك واشتياقك..

فبعض الدراسات أظهرت أن محاولة التظاهر بالنسيان، يؤدى فقط إلى ازدياد التركيز على الاشتياق إليه أكثر..

التركيز على نسيان شخص يزيدنا تعلقا به ، بل وتذكره دائما بشكل مقلق ومحزن أكثر..

مارسي على ذكرياتك السيئة الضجر..

استهلكيها بشكل مفرط حتى تضجريها وتضجرك..

قومي بإعادة بناء نفسك لأنك تعانين من اضطرابات ما بعد الصدمة، ومع تداعيات العزل الصحي وأعراض كورونا وفقد طفلتك الأمور زادت سوءً..

- علي التعافي من خيانته وموته معها في سيارته..

في مقعدي و مكاني وطفلتي خلفهما!

تعبت من البكاء!

مازحتها نوال بابتسامة..

- ما رأيك أن أحجز لك رحلة إلى الفضاء، ففيه تنعدم الجاذبية مما يمنع تدفق الدموع، رواد الفضاء لا يستطيعون البكاء!

تظاهرت جليلة بابتسامة مشاغبة، مسحت نوال دموعها بنعومة عن وجنتيها وهي تستطرد..

- البكاء بنحيب مفيد لحالتك الراهنة، لأن المخ وقتها يفرز مواد كيميائية مسكنة للألم تغادرك مع الدموع، الخطير هو البكاء الصامت، ذلك البكاء المكابر الذي تبتلعه وسادتك كاتمة سرك ليلا كي لا يُفضح بؤسك، هذا البكاء قاتل لأنه قد تنتج عنه سكتة دماغية أو قلبية..

لذلك حبيبتي ترفقي بقلبك، فأمراض القلب هي السبب الأول في موت النساء، لأنهن يستهلكن مشاعرهن بوفرة ويمنحن من في القلب أكثر مما يستحق، ويغضبن بوفاء له حتى يسممهن ويسمم حياتهن ويطردهن خارج الفرح والحياة..

في حين أن غضب الرجل مختلف، مباشرة تبدأ عيونه الخائنة في مطاردة نساء أخريات، يراهن جميعا أحلى، إلا تلك التي أغضبته..

تلك التي أنهكت قلبها لأجله!

لا تفرطي صديقتي في قلبك..

فلن يرأف به أحد غيرك..

قلب المرأة يذبل ويموت إن لم تعتني به!

- فرطت فيه حين وثقت به، مع أن حدسي فتح لي أبواب الشك..

- هذه ميزة.. لأن الشك فعل ذكي يعرفه كل الناس عدا الأغبياء!

دعينا نغير جلوسنا إلى الصالون، كي نوهم حجرنا أننا نغير الأمكنة وأننا غير محتجزتين!

تنهدت جليلة بتعب من ضرب الموج بذراعيه حتى خارت قواه..

استقامت بجسد متكاسل وبخطوات منكسرة جلست على أريكة في الصالون..

- أحيانا أتمنى الحلول السهلة، أتمنى لو كنت مصابة ب"بروسوباغنوسيا فؤاد" أي "عمى التعرف على وجهه"، أن أتعرف إلى كل الوجوه، إلا وجهه!

-اطلبي الرحمة الإلهية المتجلية في النسيان بعد الضجر منه..

لا يهم أن تنسي وجهه..

المهم أن تنسي وجعه..

لا تكوني مثل الغربان لا تنسى من يسيء إليها حتى بعد مرور فترة طويلة من الزمن..

اتركي النسيان يجري مجراه الاعتيادي..

لا توقفيه بإصرارك على العودة إلى ألمك..

تعلمي الدوس عليه والوقوف من جديد وسيتكفل الوقت بعلاجك وترميمك..

الجئي إلى الله..

استعيدي إحساسك بالأمان كي تستطيعي المشي بثبات..

اجعلي من بيتك واحة راحتك، لم يفت الأوان بعد، ألم يحثنا ديننا على البحث عن العلم من المهد إلى اللحد، هذه فرصتك لإكمال حلمك في الحصول على الدكتوراه..

تذكري أن تتركي الحياة وفيها بصمة إيجابية منك كعابرة..

المرأة مثابرة بطبعها..

فأول من تمكن من ركوب شلالات نياغرا كانت امرأة تبلغ الثلاثة والأربعين من العمر!

وأسرع وقت للسفر في القارات السبع المسجل في كتاب غينيس للأرقام القياسية كان لسيدتين أمريكيتين "كاسي ستيوات" و"جولي بيري" قبل أن تحطمه مؤخرا الإماراتية الدكتورة "خولة الرميثين"!

لا شيء مستحيل مع النساء، فقد استطاعت الروسية أوكسانا سيروشتان المشي بكعب عالي فوق حبل مشدود لمسافة 15 متر!

وأخرى استطاعت إطلاق سهم باستخدام قدميها مع إصابة دقيقة للهدف! وأول مبرمجة حاسوب كانت امرأة! وأنت حضرتك تعجزين عن نسيان وجع رجل خائن وميت، تنتحبين بصوت وبلا صوت!

قلدتها نوال بتباكي مضحك..

- لم أجلسها على مقعدي في السيارة؟ (عادت لصرامتها)..

ارتفعي بنفسك..لا تسجنيها في ماض عاطفي سيء..

حرري قدراتك الكامنة لتحقيق مستحيل عجز عنه غيرك..

كوني متميزة.. فأسوأ صفة يمكن أن تلصقيها بعبورك في الحياة..

أن تكوني مجرد امرأة عادية!

- أشعر أني خاملة وكسولة جدا لفعل شيء..أقل من عادية حتى!

- مخجل أننا نحن العربيات خاملات الأحلام..

آن لنا أن نتحرر من هذا الضعف العاطفي ونحقق انجازات لأنفسنا بالجملة لا أن نكون مجرد حالات خجولة معدودة على الأصابع..

نهتم بالرجل والمطبخ والمظهر أكثر مما صرنا نهتم بفكرنا!

الفتاة عندنا قبل أن تحصل على الباكالوريا تفكر كيف تحصل على رجل كي لا تدخل خانة عانس!

لا هي ترسم هدفا ولا والديها يرسمان لها هدفا غير الزواج!

طبعا الزواج مهم جدا..

به تحصل على حب رجل وعلى استقرار وأبناء..

ولكن الانجازات الخاصة الذاتية مهمة جدا..

لأنها تمنحها الشغف والتميز في الحياة..

قبل أن تستيقظ بعد كبر الأبناء واستقلالهم وراء طموحاتهم، على حصاد من الفراغ..

ونهاية رحلة بزاد ذاتي تحت الصفر..

تنتظر احتياج الآخرين لها كي تشعر بالسعادة..

وحينما يتوقف الاحتياج تشعر بانعدامية الجدوى من وجودها!

تماما كمتقاعدينا حينما يتقاعدون من العمل..

يتقاعدون عن الحياة..

يبحثون عن جدار في حديقة عامة ليعيشوا خريفهم الذابل..

يجلسون على طرف كارطونة ممزقة ومتآكلة كأحلامهم ليلعبوا أفواجا صاخبة بأوراق اللعب و "الضامة"، في منظر مثير للشفقة والقهر..

يؤكد النهايات التعيسة لوجودنا العربي!

على خلاف متقاعدي الغرب، يبدءون في تحقيق أحلامهم المؤجلة ليتجولوا العالم مع شريكة حياتهم..

قاطعتها جليلة بتأثر..

- ذكرتني بأحد الفيديوهات المسربة لسيدة متقاعدة في إيطاليا أصيبت هي وزوجها بكورونا وعجزت الدولة عن توفير أجهزة تنفس اصطناعية لإنقاذ زوجها، لأن ضغط الإصابات المرتفعة جعل الأطر يختارون الأصغر سنا لإنقاذهم استجابة لسياسة الدولة، فخرجت بفيديو استغاثة لإنقاذ زوجها، تصرخ فيه باكية:

" أمضينا حياتنا في العمل، نحن في سن ممتاز كي نبدأ في عيش الحب وعيش حياتنا وتحقيق أحلامنا..أنقذوا زوجي"!

كانت صرختها موجعة، لكنها معبرة..

- إنها تؤكد أن السن الذي نختاره نحن لنعتزل الحياة، هو السن المناسب للانطلاق فيها!

- ألم يفت آواني بعد!؟

- كما أخبرتك قبلا..

لا يفوت الوقت أبدا لتحقيق الأحلام..

مادام بك رمق من الحياة..

اسعي وراءها بإصرار مع إيمان كبير أن القادم كله عقبات..

كي يكون بك نفس للمواجهة والقفز!

- إذا قمت بذلك وأنا أرملة ، سيتهمونني في طهري ويسجلون إصابتي بالمراهقة المتأخرة!

فلو كنت رجلا، لما اكترث المجتمع لأفعالي وإن كانت مشينة!

- الزوجة إن كانت مضطهدة وترملت..تخرج إلى العالم حرة بعد قيد..

حينما يلفحها نسيم الحرية..

لن تعود مرة إلى سجان آخر مهما قدم لها من وعود..

إنها فقط تعيش الحياة بسحر جديد..

من يسخر من عمل قمت به بشغف واختيار دون أن يحترم مجهودك فيه، فاعلمي أنه يحسدك! لأنه عاجز عن عيش شغفك و الإحساس به!

ولعلمك في ميزان الإسلام ما يعيب المرأة يعيب الرجل..

وفي ميزان الجهل الرجل لا يعيبه شيء!

هذا ما سمعته من إحدى محاضرات محمد راتب النابلسي على اليوتوب، أنت من تحديدين!

هل يهمك إتباع الإسلام أم يهمك إتباع الجهل!؟

أنت لن تقومي بعمل فاضح..

أنت فقط ستحررين ما علق في داخلك من أحلام وتحصدين إنجازات تجعلك تفتخرين بذاتك..

المجتمع ما يرضيه هو أن تكوني فاشلة مدعاة لشفقته ليلوك بك المجالس..

أما أن تكوني ناجحة ذات شأن لن يرضي ذلك غير والديك ونفسك!

لا تكوني كالمرأة الضعيفة كلما هزتها صدمة ما،هرم داخلها وتزينت بالذبول مستسلمة للبؤس ومنتظرة للموت..

كما ملكة النحل حينما تشيخ، تنتظر "عناق الموت" من نحل خليتها الذي يجتمع حولها بكثافة حتى ترتفع درجة حرارتها فتموت!

لا تنتظري ذلك صديقتي!

كوني امرأة قوية..

تشمر عن ناصيتها وتستخدم رجاحة عقلها للنجاة..

- أريد أن أشعر بالسعادة، ولا أعرف كيف!؟

مازحتها نوال بسخرية مبتسمة..

- يمكنك الاستعانة بالوقود، فهو يؤثر على مراكز السعادة في العقل..

اجعليه وقودك للسعادة!

اصطنعت جليلة الغضب مع ضحك مكتوم..

- تحاولين أن تجعلي مني مدمنة سعيدة!

- عليك أن تهتمي بوسيلة وصولك إلى السعادة أكثر من التركيز على هدف السعادة وغايتها، فوسائل سيئة كثيرة تجعلك تشعرين بالسعادة كالوقود تماما، عليك أنت اختيار الطريق الصحيح!

- حاليا صداقتك طريقي نحو السعادة..

ضحكت نوال بقوة..

- لهذا تتسع حدقتي عينيك كلما نظرت إلي، فالإنسان إذا نظر إلى شيء يسعده تتسع حدقة عينيه بنسبة 45% تقريبًا..

مطت جليلة شفتيها بتذمر..

- لا أجد شيئا يفوتك!

- فاتتني لحظات كثيرة معك!

- القادم سيكون أجمل وسأسعد بتواجدك معي..

- ها أنت ترتكبين ذات الخطأ..

تربطين سعادتك بأشخاص، إذا غادروا غادرت سعادتك معهم!

الإنسان التعيس هو الذي يربط سعادته بآخر متحرك ومتغير..

الأهداف الكبيرة أكثر ثباتا وفاءً!

تنهدت جليلة بعمق..

- من أهدافي الكبيرة كنت أرغب دوما بمنزل ريفي بسيط، أعشق البادية بكل تفاصيلها، لكن رعبي من الثعابين إضافة إلى قصر ذات اليد منعاني من تحقيقه!

ضحكت نوال بقوة حتى دمعت عينيها..

- عليك النزوح إلى القارة القطبية الجنوبية لأنها القارة الوحيدة التي لا تعيش فيها الثعابين!

أتذكرين سفرنا إلى مراكش، أثناء زيارتنا لساحتها الشهيرة "جامع الفنا" رفضت الدخول إليها خوفا من الثعابين ومروضيهم!

أجبرتك على الثقة بي وأخبرك المروض عن الطريقة السحرية التي ستتخلصين فيها نهائيا من رهاب الثعابين..

طلب منك إغماض عينيك..

فعلت وانتظرت بصبر وسيلته الناجعة لقهر "فوبيتك"..

لتشعري بملمس الثعبان الناعم الذي وضعه حول عنقك كعقد مميت!

فما كان منه إلا الدعاء لينجو ثعبانه من صراخك الهستيري الذي هز الساحة كلها، بعد أن ألقيته أرضا وأقدامك تتقافز برعب أمام رعب المروض الذي رأى ثعبانه على وشك الدهس والموت!

صحيح أنني لم أتوقف عن الضحك الهستيري، لكني شعرت بالذنب حينما رأيت ارتجافك وشحوبك..

ظهر الامتعاض على جليلة وشاكستها..

- لا داعي لأن أذكرك بفضيحتك أمام الصرصور الأليف!

تقززت ملامح نوال المستنكرة..

- الأليف؟؟ قولي المقزز..المنفر..المقيت..المرعب..المفزع..الم..

أوقفتها جليلة بيدها..

- مهلك،! لو سمعك أفراد جمعية الرفق بالصرصور، لرفعوا عليك دعوى قضائية بالقذف والسب والشتم..

ولأجبروك على اعتذار رسمي موثق ومسجل بالصوت والصورة!

ظهر الذهول على نوال..

- تمزحين! لا تخبريني أن هناك جمعية للرفق بالصرصور!؟

- نعم رأيت ذلك في إحدى القنوات الالكترونية، مجموعة من الشباب المغاربة يربون الصرصور ويدافعون بتأثر وبكاء عن حقه في الحياة! صراحة خرس رد فعلي، عجزت عن الاستيعاب أو الضحك أو التعاطف، كما أنت الآن!؟

خرست نوال للحظات..

- هل انتهت القضايا الكبرى كي ينصب اهتمام الشباب على"قضايا" سخيفة!؟

لا عجب أن الانتكاسة العربية تزداد حدة لسخف من تعقد عليهم آمال الصحوة الجديدة!

عجيب أمر هذا الزمن!

كل مرة يقدم لنا الهاتف كوارث جديدة..

ما أريحها الهواتف القديمة!

فقط تحمل لك صوت المتصل وتضبط لك التاريخ والساعة وعلى أبعد تقدير تضحك عليك بنشرة يومية متوهمة عن درجة حرارة الحب في قلبك..

أما هاتف اليوم، كل جنون العالم وحماقاته بين يديك ببصمة أصبع!

- هل رأيت فضائح روتيني اليومي!؟

كيف أن ربات البيوت ولأجل الربح المادي ورفع نسب المشاهدة ترفعن الحياء عن أجسادهن وتهتكن سر بيوتهن لمن هب ودب!؟

رغم تعرضهن للتعليقات المسيئة والمستهجنة..

ابتسمت نوال ساخرة..

- في علم النفس الاستماع إلى التعليقات الساخرة اليومية من الناس عليك، تزيد من إبداعك وعطائك!

توسعت عينا جليلة بعدم تصديق..

- لهذا يبدع الجميع في التفاهة!

أحيانا تصلني في الفايسبوك فيديوهات قصيرة من برنامج "تيك توك" أشمئز حقا من مستوى الرداءة والسخف للفتيات و السيدات..

حتى الشبان والرجال للأسف لم يسلموا من جاذبيته المجنونة..

استسلموا للركب في شكل يدعو للقرف..

- أنت لن تستطيعي تغيير العالم!

السياسة العالمية هذا الضياع هو ما أردته تماما للعالم العربي، الماضي في منعرجه بارتياح تام دون وجع ضمير!

الجميع يعرف الصواب من الخطأ..

الجميع يعرف المفروض والمرفوض..

الجميع يمارس تفاهته بحرية..

ليس عن جهل، ولكن عن سبق إصرار وتعمد وفخر!

المجتمع نفسه أصبح منجذبا للرداءة، هل أنا وأنت من يرفع نسب المشاهدة!؟

إنه الكل المتواطئ!

إذا حاولت تغييره بإيقاظ الضمير الميت سيلقبونك ب"الفقيهة" والرجعية التي انتهى شبابها، وآن لها أن تنسحب، وتترك للشباب الجديد حرية ممارسة شبابه!

كأنك ما كنت شابة قبلا!؟

- وهذا ما يحز في النفس الأبية أكثر!

لأن التغيير ميؤوس منه مع العقليات المصرة على الخطأ والتي تدافع عنه بشراسة وتبرره بالفقر البريء منها..

لأننا جميعنا فقراء إلى الله..

والفقر إن لم يجعلك قريبا من طريق الحق..

فلن يجعلك الغنى أقرب..

بل سيجعلك أبعد!

- تعددت الجبهات، لا نعلم إن كنا سنواجه السياسة العالمية الملغومة أم السياسة الوطنية الداخلية!

لأني لم أستوعب يوما كيف لسلطة الدولة برجالاتها، أن تقف عاجزة في وجه المعتدين بالأسلحة على المواطنين!

كأنها تريد هذه الفوضى لتشغل الناس عن فسادها!

السرقة بالسلاح الأبيض أصبحت مشرعة من الدولة ومن المجتمع نفسه، الدولة سجونها لا تعيد الإدماج ولا تخرج نماذج متعظة وناجحة، بل تزيدهم وحشية وألفة لحياة السجون التي يألفون فيها قفف المؤونة المكفولة من طرف الأهل كل زيارة..

بعد مدة يفرج عنهم بعفو..

ليعودوا بجنحة أسوأ أو جناية!

أما المجتمع فيشرعها حينما تركض أم الجاني إلى الضحية مستجدية باكية للرأفة ببغلها المتوهم للفروسية بسيفه المسلط على رقاب النساء والعزل والضعفاء..كي يسامحوه ويتنازلوا عن دعوتهم ليعود ببسالة وحرية لتهديد رقاب أخرى أو قطعها!

تحسرت جليلة بإشفاق..

- ذكرتني بابنة جارة والدتي، كانت تعمل في شركة بالحي الصناعي بسلا، تستيقظ باكرا لعملها، كانت المعيل الوحيد لأمها الأرملة، ذات صباح اعترض طريقها قاطع طريق بسيفه البتار، لم يخجل بشاربه الذي يذكره بأنه رجل،! دون خجل رفع سلاحه في وجه فتاة مكافحة تعمل بشرف، أرعب سنواتها العشرون، أخذ هاتفها المتواضع وبضع دريهمات لأجل وجبة غذائها الفقيرة قبل أن يهوي بسيفه على كتفها، عقابا لها على هاتفها المتواضع وعلى فقرها، شلت يد الفتاة رغم حصص الترويض الشحيحة في إحدى الجمعيات، مع عاهة نفسية مستدامة، أصيب جسدها بالارتجاف على شاكلة مرض باركسون..

المعيلة أصبحت عالة بفعل وحش بارد الكتفين والنفس..

ألقي القبض على الجاني ليخرج بعفو بعد أشهر ليرتكب جريمة قتل في حق أحد الجيران الذي وقف في وجه بطشه واعتداءاته المتكررة!

كلما زرت والدتي زرت الفتاة وأمها، ازداد فقرهما عما كان، الآن هما في رعاية الجيران وصدقة الجمعيات في الحي..

تأسفت نوال بوجه عابس..

- مؤسف حالها..

حق المواطن البسيط على وطنه أن يشعره بالأمن والآمان..

أن يتحدث في هاتفه بحرية دون أن يخشى دراجة نارية تخطف هاتفه وأذنه وذراعه وغده..

أعتقد أن السجون عليها أن تغير من عقوباتها!

عليها أن تسخر المساجين لتعبيد الطرقات في الجبال والقرى القصية..

أن تجبرهم على الأشغال الشاقة خدمة للوطن كي لا يفكروا في ارتكاب جرم آخر عند خروجهم..

عليهم أن يرتدعوا ويحجموا عن ارتكاب أفعال تعيدهم إلى السجون ارتياعا من العودة إلى جحيم الأعمال الشاقة..

وليستفيد الوطن من محكوميتهم..

لا أن يمضوا عقوبتهم كنزلاء فنادق بقفف تنهك الأهل!

على السجون أن تخرج رجالا وإلا لا داعي منها!؟

ترقرقت عينا جليلة بالدمع..

- فقدنا أمننا على أرواحنا وعلى صغارنا!

كل يوم نفجع في الأخبار والفايسبوك باختطاف طفل وهتك عرضه وقتله بفظاعة وبطرق وحشية تأنفها الحيوانات!؟

الذئاب منتشرة ليلا ونهارا..

كل يوم تصدمنا جرائم بشعة لمرضى نفسيين ومدمنين..

نجاهد لننساها فتأتي أخرى لتذكرنا بها بأبشع طريقة ممكنة!

أصبحنا غير قادرين على متابعة المزيد..

حتى تهالكت القلوب وكثر موت الفجأة..

وموت السكتات القلبية..وكم فجعنا نحن المغاربة بموت الصحفي المغربي صلاح الدين الغماري، محبوب الشعب، هذا الصحفي الغيور الذي خرجت أوداجه وهو يحذر الناس من الوباء ويعلمهم شروط الوقاية والتباعد والتعقيم، غافله وغافلنا أجله، ليموت بسكتة قلبية دون مرض مفاجئ، موت أنزل الرعب في أشد القلوب غيا!

- المخجل أننا لا نستفيد من الرسائل المشفرة لننقذ ما يمكن إنقاذه..

حياتنا الإنسانية فقدت دفئها، كنا في حجر عائلي قبل أن يغافلنا حجر كورونا الذي كان بمثابة خاتمة مريحة لعلاقاتنا الاجتماعية الميتة التي انفصمت عراها زمنا قبل الوباء..

اختفى احتفاؤنا بالضيوف وفرحنا بطرق الباب الذي نفتحه بسرعة لنحضن القادم عندنا دون موعد أو ترتيب للبيت وتكلف بالإعداد!

نسرع بإعداد الفطائر والمسمن والشاي والقهوة، حيث تجذب روائح الاحتفاء الجيران، الذين يدفعون بدورهم بابنا ليشاركوننا لمجتنا بأطباقهم احتفاء معنا بضيفنا..

ندور حوله بحبور ونتعلق به حين يهم بالمغادرة..

بل ونخفي نعليه كي يضطر للمبيت..

أين نحن اليوم من هذا!؟

حينما أصبح الراشد يكذب أمام الصغار على الهاتف:

" لسنا في المنزل "! يأمر الجميع بالصمت..

يسكت صوت التلفاز..

يوقف صرير الأبواب..

وخرير الصنبور..

وطنين الدبور..

يسكت كل الأصوات، حتى تنفسه..

كي تكتمل أكذوبته وهروبه من استقبال الضيف، إلى أن يفضحه جرس الباب الذي يعرفه القريب المتصل، ليفهم الرسالة المشفرة ويخجل من مواجهته أنه كاذب!

فيتوقف عن زياراته له ويقطع رحمه دون إعلان أو تشهير، وحينما يلتقيان في مناسبة عائلية اضطرارية، يسأله بنفاق أصفر

"أين غيابك ؟لم لم تعد تزورنا؟"

فيواربه بدوره متصنعا التأسف:

" إنها انشغالات الحياة"!

مع أن الحقيقة ليست في الانشغال، فجميعهم ينفقون بسخاء وقتهم في المقاهي والحدائق والمنتزهات!

الحقيقة أنها تغيرات البشر..

وكورونا قدمت العذر لمن لا عذر له..

كي يلتزم بالتباعد وحدود بيته..

تطورت البشرية علميا وانهارت أخلاقيا!

- قاطع الرحم أكثر من واصله في زمننا..

كورونا فرصة لنعيد فيها حساباتنا مع خالقنا وأنفسنا ومع محيطنا..

هي وقفة تأمل لكل ضال للعودة إلى جادة الصواب..

الناجي اليوم من موت كورونا عليه أن يتأكد أنه محظوظ أعطيت له فرصة ثانية ليغير حياته للأفضل!

عليه أن يستفيد من الدروس التي قدمتها له كورونا..

عليه أن يعلم أنه ضعيف جدا وآيل للزوال..

عليه أن يتعلم الادخار لينفعه في الأزمات..

عليه أن يطور مهاراته العلمية والعملية ويجعل من عمله عملا ضروريا ليصمد في البقاء في عز الظروف الصعبة..

وعلى من تضررت مهنهم بحجر الوباء أن يتعلموا حرفة تحميهم من ذل العوز وتمنحهم المرونة لجلب رزق حلال لأسرهم..

هي دروس وجودية للأفراد والدول كي تعيد تقييم مؤهلاتها ومواردها لترفع من مردوديتها في ظل الأزمة..

التفتت إلى نوال فوجدتها غطت في نوم عميق..

همست بابتسامة..

-ما فاز إلا النُوَّمُ..

غادرت أريكتها، شعرت بالتعب والخدر في ساقيها، صارت تذرع طول شقتها ذهابا وإيابا، متخيلة نفسها في مشي رياضي في منتزه طبيعي.. فالشقق الاقتصادية في حالة الحجر الصحي..

تتحول إلى علبة سردين ضيقة وسجن فردي لا يطاق!

خطر في بالها الأسوأ، الأسر الأكثر منها عددا والأشد منها بؤسا التي تضطر لعوزها لاكتراء غرفة واحدة مع حمام مشترك!

هكذا هي الحياة..متدرجة في الحظوظ!

حدقت من نافذة شقتها إلى حديقة العمارة الخالية..
وسرحت تفكر..
عجيب أمر هذه السنة..

ألفين وعشرون..

عشرون عشرون..

كأن العشرون ضرتين..

غارتا من تشابههما..

بدل أن يثمر ذلك على تعاون مبهر..

تنافستا لتقدم كل واحدة أسوا ما لديها!

ليتكابلا على البشرية ويخرج في زمانهما أسوا فيروس عرفه البشر في السنوات الأخيرة، أقفلت الدول وتوقفت العجلة الاقتصادية والحياة الاجتماعية، وما زال البشر في السنة التي تلتها يحاربون السلالات المتحورة لفيروس كورونا في انتظار توزيع اللقاح على فئات واسعة..

الأيام تكرر نفسها في هذا العزل الرتيب، يكسر رتابتها حديثها إلى صديقتها وحديثها الصامت إلى نفسها، تشعر أنها تغرق في صمت الجدران وحدود السرير، تورمت أقدامها بقلة المشي، اشتاقت لتنشق الهواء دون حرص أو كمامة، دون خشية من أن تنشر أو تأخذ عدوى الوباء!

لا يكسر وجه تلك الرتابة، إلا تنافسها المثمر مع نوال حول من ستقرأ كتبا أكثر!

الجميل أنها تحرص دوما على اقتناء أفضل الكتب والروايات، رغم توقفها عن التحصيل الأكاديمي إلا أن عشق المطالعة استمر معها ولم يغادرها قط..

وذات الشغف تتشاطره مع صديقتها نوال التي أعربت عن عشقها..

- لا أتخيلني أنام دون أن أقرأ!

القراءة هي غذاء روحي النهمة والجائعة دائما إلى اكتشاف سحر معالم جديدة..

لا أعرف كيف لمجتمعنا أن يحرم نفسه من هذا السحر!؟

أعشق رائحة الورق..

أعشق ضم كتاب إلي قبل أن أنام..

أعشق التعرف إلى شخصيات أحس نبضها وأسمع ضحكها وأشاركها واقعها دون أن تزعج واقعي..

بل كلما كان الكتاب جيدا وهادفا كلما غيرني للأفضل..

إن الكتب الرائعة والدة صالحة تربيني..

تلهمني..

تمنحني المبرر لأزداد عشقا لوحدتي ويتمي..

تشعرني بالامتلاء بأناس لا يشاركونني طعامي، لكن يشاركونني قلبي وكل جوارحي..

تشعرني بالاكتفاء بهذا التعارف البشري المفيد، الذي لا يورطك في نميمة أو ذنوب!

تشعرني بالشبع الذي يليه جوع شرس..

لا ينافس جوعهما المشترك إلا حبهما للعبة الشطرنج ومتابعة البرامج الوثائقية، لذلك كان وقتهما معا ممتعا رغم إجبارية العزل المنزلي!

ازداد تواصلها مع عائلتها، كلما مرت الأيام في عزلها الصحي زادت هشاشة أمها المتأثرة بمرضها أكثر من تأثرها بوفاة زوجها وابنتها، كل محادثة تبدو أشد تعبا وشحوبا، كأنها تترقب الأسوأ، أو أنها غير واثقة من نجاتها رغم عودة الحماس والبهجة إلى جليلة..

تنظر إليها مطولا في محادثاتهما بالفيديو في الواتساب دون أن تتحدث كثيرا، تتجنب الحديث عن نوال، يظهر عليها توتر باك كلما زلت باسمها، لابد أنها منزعجة من كونها مقربة منها في مدة إصابتها من الوباء!

لا بد أنها محرجة من شجاعة نوال في عدم الخوف من العدوى!

وجليلة بحدسها لحساسيتهم جميعا مع اسم صديقتها، صارت تتجنب الحديث عنها عند كل اتصال..

مر أسبوعان رغم حرصها على الدواء والراحة والأكل الصحي والرفقة الدافئة والممتعة لصديقتها نوال، لم يبدو عليها التعافي بعد من وباء كورونا، وإن تراجعت حدة الضغط على صدرها وعادت أنفاسها لطبيعتها واعتدلت حرارتها، لكن التعب والإنهاك في جسدها لم يغادراها بعد، تبدو وكأنها ركضت لمسافات طويلة، أو كأنها تعرضت للدهس من شاحنة مسرعة..

مع فقدان تام لحاسة الشم والتذوق..

آه ما أعذبها من نعمة!

ما عاد للأكل طعم، يبدو كالتراب تماما..

اشتاقت لمذاق الملح والسكر والقرفة، آه وأشرس حرمان عجزها عن شم رائحة القهوة المنعشة، تشعر عروقها بالكافيين لكن تعجز عن تذوقها!

تأملت صورة أطفالها المعلقة في إطار بني في غرفة الجلوس..

ما أوجعه فقد كورونا!

ما أقسى أن تفقد قطعة من قلبك دون أن تستطيع توديعها!

دون أن تضمها أو ترافقها إلى مثواها..

يحرق الشوق كبدك دون أن تصدق أنك فقدت قطعتك ولن تعود..

يستمر تطلعك إلى باب الدخول..

تعتقد ذات سهو أنها ستراها ببسمتها المعتادة وركضها المشتاق لتسكن ذراعيها..

كم يتيمة جدا ذراعيها!

تحتاجان لضم فلذتيها جلال وجمال..

بارد جدا قلبها لن يدفئ إلا بحضن منهما..

إنهما بعيدان هناك عند والدتها، فخوف العدوى أكبر من شوقها..

همس داخلها بأنين موجع..

- كم أشعر أني طفلة أمي، أحتاج ذراعيك وصوتك لأشعر أني بخير..

أحتاج إليك لتعديني لدرب الصبر والتعقل..

- اشتقت إلى خالتي!؟

علمت أن نوال استيقظت..ودون أن تستدير إليها..

- كم أنا ضائعة دونهم! لولا لطف الله الذي أرسلك إلي..

لتفرد بي الجنون وافترسني!

- أنت قوية، فقط صدمتك منعتك من اكتشاف مكامن القوة فيك..

الله سبحانه وتعالى جعل لنا طبيبا داخليا يساعدنا على الشفاء الذاتي..

وكما يعالج اختلالاتنا الجسدية، فهو يساعدنا على تجاوز كبواتنا النفسية..

والنسيان والتكيف جزء من هذه المساعدة الذاتية..

- أحاول جاهدة أن أستجيب لدعمك لكني في الغالب أعجز بشكل مخجل..

- أعرف..فشهقاتك المكتومة ليلا تفضحك، لهذا أكرر لك كلامي التحفيزي..

- امم..كنت أعتقد نومك عميق جدا!

- نعم هو كذلك..لكن حزنك استشعره بقلبي فيوقظني..

-أعتقد أن ارتباطي الروحي بك سيوقظ طيفك من الموت كي يرعاني!

أطلقت ضحكة مبهجة وهي تتخيل الأمر، استدارت إلى صديقتها نوال لتعتقلها في عناق حار..

- لا شيء مستغرب منك!

تعلقت بها نوال بحرارة أشد، واضعة رأسها على كتفها..

- ما كنت لأنسى دعمك لي في محطات كثيرة لصداقتنا المميزة، أتذكرين يوم أصبت بالتهاب الزائدة الدودية!؟ والمستشفى العمومي أعطوني موعدا بعيد جدا، ركضت باكية إلى عائلتك تستجدينهم إنقاذي وأخذي لمصحة خاصة، ما كنت لأنسى ذلك اليوم!؟ لأول مرة يسقط عني يتمي وأنا أجد والدك رحمه الله في مكان والدي الذي لم أذكره لوفاته المبكرة، أشرف على كل

الإجراءات ودفع فاتورة المصحة، وكل عائلتك لم تتركني وحيدة دون زيارة، حنان والدتك ووالدك وشقيقتك وشقيقك..

أنت لم تقدمي لي صداقتك فقط..

بل قدمت لي عائلتك بحنانها الجارف كله!

وحينما حصلت على الوظيفة أصررت على دفع تكاليف العملية، غضبتم جميعا ورفضتم، كان جواب والدك رحمه الله جوابا منحني انتماءا جديدا وهوية ثابتة..

"أكنت سأستعيد المبلغ من ابنتي جليلة، أنت ابنتي مثلها وأكثر لأني أنال بك أجرا أكثر ليتمك، وأبسط واجباتي أن أمنحك عطف الأب كابنتي"!

أدفأ ليالي تلك التي كنت أمضيها في منزلكم..

أنقذتم حياتي لأن قبل العملية بساعة انفجرت زائدتي..

أنا مدينة لك بحياتي ورتق يتمي..

فكيف لي ألا أرعاك يا أخت قلبي!؟

- مهجة القلب أنت، أبي رحمه الله أحبك جدا، كم تمناك زوجة لأخي، لكن قلبه كان متعلقا بنجاة التي تزوجها لاحقا..

وقلبك أنت متعلق بحريتك وجناحيك..

دعينا كناية في كورونا نتعانق أكثر..لنعوض ما فاتنا!

بعد أسبوع خفت الأعراض تماما فقط حاسة الشم والتذوق لم تستعدهما بعد، فتطوعت سناء صديقة أختها جميلة العاملة بمختبر طبي خاص بالتنقل إلى شقة جليلة لإجراء تحليل كورونا، ومعرفة إن كانت تحمل الفيروس بعد..

والنتيجة ستظهر في اليوم الموالي!

حماس شديد دب في أوصال جليلة التي ألفت التعب والانهاك..

هل سيفرج عنها!؟

هل سترى طفليها ووالدتها وشقيقتها وشقيقها وزوجته وأطفاله!؟

هل ستراهم جميعا وتضمهم بجوع عزلها الصحي!؟

اتصلت بوالدتها لتخبرها بفرح أنه سيفرج عنها قريبا، استغربت لفتور والدتها، توقعت فرحا كبيرا، لا بد أنها اعتادت الطفلين وستحزن لفراقهما!

ودعتها وطلبت ألا تخبر جمال وجلال كي تفاجئهما..

أنهت اتصالها بالقبلات والفرح وذراعيها محلقتين وخطواتها ترقص تحليقا ورشاقة..

تنفست بارتياح كبير دون أن يضيق تنفسها أو يمسك السعال بخناق صدرها..

- نوال أيتها الكسولة، انهضي..بي طاقة عجيبة لتنظيف البيت، أحس أنني تعافيت، سنخرج للحياة، سنبدأ بداية جديدة!

وجدت نوال في المطبخ تعد قهوة فواحة لذيذة من رائحتها الزكية..

-هذه جليلة المرحة التي أعرف..ملتهبة بالحماس والفرح..

لن يهمك اليوم شيء ما دمت تصالحت مع نفسك...

وتجاوزت كراهيته وكراهية ما فعله بك..

فمسامحة من آذاك هي طريقك للتعافي من دماره..

- "القلب إذا كره عمى" كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه..

قلبي عثر على البصيرة..

لا أريد للكره أن يعيده أعمى من جديد..

بصيرة القلب هي نور طريقك في الحياة كي لا تضيع عن الله وعن نفسك وعن دورك الذي خلقت لأجله..

- كم أنا فخورة بقفزك الرشيق جدا على وجعك..

- أدركت أخيرا أن حياته كانت مليئة بالأكاذيب، الحقيقة الوحيدة هي طفليّ..

لن أتحول إلى بائسة بسبب خطيئته..

لن أحطم قادمي بالنحيب عليه لأنه خانني وكسرني..

كما قلت هو خان نفسه وكسر نفسه، فما عساه اليوم يخبر الله عز وجل!؟ كيف سيواجهه وعشيقته ماتت و خطيئتهما في سيارته!

كل من عجز عن محاربة خطيئة ما..عليه أن يضع في حسبانه مغافلة الأجل له وهو قيد فعلها!

لو تخيل فؤاد نفسه أنه سيموت قيد خطيئة، لأحجم عن ارتكابها!

ما أشقاه! لا أملك إلا أن أساعده بالدعاء وأربي ولديه على عدم نسيانه، عفوت عنه..

كنت أعتقد أني بخيانته وموته سأموت..

لكن محنته كانت منحتي لأعرف الطريق الصحيح إلى الله..

علمني بموته أن الموت قريب..

وأصعبه أن تموت على معصية دون أن تمتلك فرصة التوبة وطلب المغفرة من الله..

تعافيت من خيبته بحب الله..

الوحيد الذي لن يخذلك إن أحببته..

جميعنا عند الله سبحانه وتعالى نحتاج إلى المغفرة والعفو..

وأنا قد غفرت وعفوت..

وأطلب من الله العلي القدير أن يعفو عنه ويغفر له..

سأبذل جهدي قيد حياتي بالدعاء له والتصدق لأجله، وأرجو من الله أن يرسل لي من يحسن إلي بعد موتي..

اليوم أنا مستعدة للحياة!؟

نظرت إليها نوال باندهاش فخور، سرعان ما هاجمته غيمة شجية مغمومة..

- أصبحت اليوم سيدة نفسك وقائدتها، ما عدت في حاجتي!؟

ضحكت جليلة بشقاوة وقد عاد التورد لوجنتيها وهي تغمزها..

- طبعا أنا في حاجتك، من سينظف ويعقم البيت معي..

عادت لجديتها وهي تمد لها يدها..

رافقيني في رحلتي يا أخت القلب..معك الحياة أحلى!؟

أمسكت بيدها ونهضت من كرسيها والدموع تغرق ملامحها الشاحبة..

- ما عدت في حاجتي، مع أني سأظل ظلك نهارا ووسادتك ليلا..

زاد ضحك جليلة الممازح..

- من سيفرط في وسادة وثيرة مثلك!؟

ضحكتا معا وانهمكت جليلة بهمة ونشاط في تنظيف البيت وتعقيمه جيدا ونوال تراقبها، يتبادلان الحديث والذكريات والضحك، لم تشعر جليلة بمرور الوقت، حتى انتهت أخيرا بعد صلاة العشاء، استحمت وارتدت ملابسها وصلتا معا وكالعادة أخذتا وقتا لقراءة القرآن والأذكار ومناقشة بعض السور والبحث عن شرحها وشرح سياقها، حتى أصدرت أمعاء جليلة احتجاج الجوع..فغادرتا المطبخ لتسخين حساء "الحريرة" التي جهزتها والدتها..

بعد تناول عشائهما اللذيذ وتنظيف أوانيه وأسنانهما، التحقتا بغرفة النوم..

وقبل أن تتمدد جليلة في سريرها شعرت بحضن نوال من الخلف وصوتها الأجش يفضح مشاعرها المتأثرة اليوم..

- أشكرك صديقتي على محبتك الصافية والوفية، اعتني دوما بنفسك وبطفليك كي أكون أسعد..أحبك في الله..

تعلقت جليلة بذراعيها ومرغت فيهما وجهها بمودة ورأفة ومازحتها..

- هل تودعينني!؟ لن أتركك بعدما وجدتك!

- ما تركتك يوما، ولن أتركك أبدا!

التحقت هي الأخرى بخطوات متثاقلة بسريرها..

بعدها بقليل سمعت جليلة دندنة خافتة من صوت نوال قبل أن ترفع صوتها..

- أتذكرين قصيدتنا الرائعة لشاعرنا المفضل "أبو القاسم الشابي" التي تغنت بها "ماجدة الرومي"..

ألا انهض وسر في سبيل الحياة

فمن نام لن تنتظره الحيـــاة

شاركتها جليلة الدندنة..

خلقت طليقا كطيف النسيم

وحرا كنور الضحى في سمــاه

تغرد كالطير أين اندفعت

وتشدو بما شـتاء وحي الإله

وتمرح بين ورود الصباح

وتنعم بالنـور أنى تـــــراه

كذا صاغك الله يابن الوجود

وألقتك في الكون هذي الحياة

فما لك ترضى بذل القيود

وتحني لمن كبلـــــوك الجباه

وتقنع بالعيش بين الكهوف

فأين النشـــــــيد وأين الإياه

أتخشى نشيد السماء الجميل

أترهب نور الفضـــا في ضحاه

ألا انهض وسر في سبيل الحياة

فمن نام لن تنتظره الحيـــــــاة

إلى النور فالنور عذب جميل

إلى النور فالنـــــور ظل الإله

رددت نوال وحدها..

- فمن نام لن تنتظره الحياة..

لا تنامي أبدا..

لن ينتظرك أحد ولن تنتظرك الحياة..

أعرف أنك متعبة وفي حاجة للراحة والنوم، تذكري فقط أن تجدي بيتي..

لا تنسي رواية دهشتنا الفلسفية" عالم صوفي" ستجديني هناك..

تذكريني!

رنت كلماتها في أذنيها، وتعبها يسحبها لنوم جميل، بعد حمام دافئ و حساء "الحريرة" المليئة بالكرفس المنوم الطبيعي..

حاولت أن تجيبها باعتراض، شل لسانها ووعيها ليخطفها نوم وثير وعميق..

تسمرت بإجلال أمام ما تراه..

سماء صافية السواد والعتمة..

مع سحاب مكتنز ناصع البياض كقطع قطن محلقة..

يحيط بها انعكاس أعماق المحيط بعذوبته وسحره، وأسماكه النادرة الملونة المذهلة وقناديل البحر المتوهجة المختلفة الأنواع التي تسبح وتحلق في ذات الوقت وتراقص الخصلات الطويلة لعشب البحر الذي يغازل برقصه

نبات البوسيدونيا ويلتف بغنج حول الطحالب المرجانية المستكينة لهذا البهاء..

لم تستطع أن تنبس بكلمة في حضرة ذاك الجمال الرباني..

جلست القرفصاء باستسلام صامت ورهبة وجلة كمن فتحت له طاقة القدر!

تفقدت بخدر جيبها بحثا عن الهاتف لتوثيق هذه الصورة الأخاذة المنفلتة من رقابة اللامعقول..

من حسنات الهاتف أنه يحتفظ بالصور التي تبهرنا ونحبها لنعود إليها متى شئنا، لم تعثر عليه، رنين بعيد أزعجها، خشيت أن تطير الأسماك بعيدا، أن تختفي تلك اللوحة الخفراء الغامضة..

تجاهلته..أخرسته في أذنيها..لابد أنها في حلم!

فبعض الأحلام لروعتها المدهشة لا ترغب في الاستيقاظ منها أبدا..

تطيل نومك..

تخشى يقظتك..

وتكره من يسحبك منه..

إنها في حلم مدهش لا ترغب في الاستيقاظ منه، من المستحيل أن ترى الأسماك عائمة ومحلقة في الفضاء!

تريد تسجيل تلك التفاصيل الساحرة، فلا هاتف ينوب عنها، ذاكرتها فقط من عليها الاحتفاظ بها بذات السحر..

مدهشة مخيلتك تقدم لك لوحات بمختلف الأنواع، قد تكون قمة البشاعة، أو في قمة الجمال، وحلمها الليلة من أروع اللوحات التي قدمت لها في حياتها، جعلتها تخرج عن المألوف، من المعتاد أن نرى انعكاس السماء في البحر، لكن أن ترى انعكاس البحر في زرقة السماء في لوحة مبهرة وأنت منبهرة بسكون في حلمك لا تعرفين كيف تحتفظين بها، فاعلمي أن مخيلتك قفزت بك كل الحدود!!

أزعجها رنين الجرس..استيقظت رغما عنها من حلمها الجميل، تثاءبت وعيونها ملتصقة ببعضها، تشي بنومها اللذيذ..

تمايلت بخطواتها الناعسة وهي ترفع بيد الروب لترتديه بكسل مخدر وتقفله على بيجامتها..

لم يتوقف الجرس عن الرنين..

- أنا قادمة!

أتاها صوت شقيقها جواد القلق..

- أأنت بخير!؟

فتحت الباب وهي تجاهد فتح عينيها..

- أيجب عليك أن ترعبينا أيتها الأميرة النائمة!؟

قبل أن تستوعب احتضنها بذراعيه في عناق حار، ليطالعها من خلف كتفه والدتها وشقيقتها..المحملتين بالطعام كما العادة..

فجأة تذكرت..انتفضت وهي تسحب نفسها بذعر من بين ذراعيه..حاولت الهرب..

- مهلا! لا أرتدي كمامتي ولم أعقم يدي، فالعدوى..

أوقف هروبها وذعرها وهو يعيدها إلى ذراعيه، قبل أن تسحبها منه والدتها وصوتها الذائب شوقا..

- سلاماتك وسلاماتنا حبيبتي، ظهرت نتائج تحاليلك، ما عدت حاملة لفيروس كورونا، لقد شفيت..صديقة أختك بشرتنا صباحا!

حضنها الدافئ، إعلانها الفجائي كانا كولادة جديدة، تمرغت في شال والدتها ورائحتها بدموع الشكر والشوق والشفاء..

-الحمد والشكر لله، كم اشتقتك أمي!

انتقلت إلى حضن شقيقتها الباكية، احتضنتها بلهفة كأنها لا تصدق أن أختها بخير..

انتبهت لأشعة الشمس المتوهجة في الصالون، استغربت..

- كم الساعة !؟

- أذن الظهر منذ قليل..

فغرت فاها من الدهشة..

- يالله..نمنا كما الأموات، لم نصلي الفجر!؟

ستة عيون قلقة صامتة حدقت فيها بحزن، وراقبت اندفاعها إلى غرفة النوم..

- استيقظي نوال، فاتتنا صلاة الفجر..لم ننم مثل اليو..

توقفت عبارتها، وجدت سرير نوال فارغا، مع اختفاء كرسيها المتحرك!

هرعت للبحث في المطبخ والصالون وغرفة الجلوس وحتى الشرفة، عادت إلى البهو، والدتها تشهق في بكاء شديد وكذلك شقيقها وشقيقتها الممسكين بوالدتها المنهارة..

تصاعد التوتر والخوف إلى عينيها..

- أين نوال!؟ ماذا حدث؟ أتخفون عني شيئا!؟

زاد نحيب أمها ووجوم جميلة..

لترى انهزاما فظيعا على كتفي جواد المنحنيين، جبلها الشاهق الذي انهار على ركبتيه باكيا بعجز رهيب..

- من مات من جديد!؟

صرخت برعب..

- جلال وجمال أهما بخير!؟

أسرع جواد يهدئها..

- لا تقلقي إنهما مع زوجتي، ألم تخبري أمي أنك تريدين مفاجأتهما!؟

لم نخبرهما عن شفائك حتى تفعلي أنت..

نظرت إليهم بحذر شديد، فانهيارهم غريب جدا، لا بد أنه يخفي كارثة جديدة، تشعر بذلك!

- إذن ما الأمر!؟ أخبروني فلن أمر بأسوأ مما حدث لي، أنا قادرة اليوم على مواجهة أي شيء كيفما كان، بي صبر كبير وقدرة جبارة على التحمل والاستمرار..

نظرت إليها ذات العيون الستة بدهشة ذاهلة..

استقامت بهامتها، اكتسبت وزنا جديدا وتوردت وجنتاها..

غمزتهم بابتسامة مشاكسة تتلاعب على شفتيها، ذكرتهم بجليلة العازبة..وغمرتهم بنظرة حنان دافق..

- حسنا دعوني أتوضأ وأصلي، ريثما تجهزون فطورا أو غداءا كما تحبون، فقد اشتقت إلى وجباتنا الجماعية..بي جوع نهم!

قبلت وجنة والدتها المصدومة، وغادرت بخفة إلى الحمام..

تهاوى جسد أمها بإنهاك على كرسي المطبخ الذي أسرعوا إليه جميعا، وكل واحد يحدق في الآخر بعدم تصديق وتوجس رهيبين..قبل أن تجهش أمها في البكاء..

- فقدت ابنتي..ضاعت ابنتي!

ربتت يد جواد على كتف والدتها..

- شتت..ستسمعك..أعتقد أنها بخير..لا تقلقي!

حاول بذلك أن يهدئ الخوف المتجول كالبرق في أمعائه..وهو يعزي نفسه بمعنويات أخته العالية..

كان الصمت رابعهم أثناء إعداد وجبة فطور متأخر لجليلة وغذاء لهم..

حرصت والدتها على إعداد قهوة لجليلة كما تحبها من يديها، مع فطيرتها بالقمح الكامل والزبدة البلدية الطبيعية..

- اممم..أعدتني سنوات إلى الوراء ما أحلاك يا أحلى أم في الوجود!

ضمت والدتها من الخلف وقبلت رأسها، قبل أن تلتحق بفنجانها وفطيرتها وتنهمك في تمديد الزبدة على الفطيرة الساخنة، ومن خلال فمها الممتلئ وإدام الزبدة الذائبة لامع حول حوافه..

- لا تقلقا أنتما أيضا أروع إخوة في الوجود، حفظنا الله لبعض..وأطال الله في عمر والدتنا وصحتها..

والدتها بشفاه مرتجفة تهم بالبكاء..

- أخبريني ابنتي أنك بخير!

التمعت عينا جليلة بالثقة والقوة والراحة والهدوء..

- أقسم أنني لم أعش هذا السلام منذ زمن..فلننهي وجبتنا أولا ونتحدث لاحقا..

انتهت وجبتهم وتكلفت جليلة بحيوية ومهارة بجمع المائدة وتنظيفها وغسل الأواني أمام دهشة جميلة..

- حسنا طيلة هذه المدة وأنتم مكلفون بتغذيتي كخروف يجهز للعيد، دعوني أدللكم فقد شفيت!

انتقلوا إلى غرفة الجلوس، جلست جليلة المسترخية بانتعاش، تأملتهم بطمأنينة ورزانة..

- دعوني الآن أعرف ما الأمر!؟

استدارت إلى جواد..

- تفضل أنت جواد، لن يسمح لهما البكاء بالحديث!

انفجرت والدتها وشقيقتها بالنشيج..

رفعت حاجبيها بابتسامة من فقدت فيهما الأمل..

- ألم أخبرك!؟

تهلل وجه جواد بالبشر والارتياح، عاد تواصله مع جليلة كما كان سابقا في طفولتهما وشبابهما بمنزل والديهما، يشعر بها، يشعر بذلك البريق الذي غادرها، لقد عادت!

- هل أنت مستعدة فعلا لما سأقوله!

برباطة جأش وثقة وعزيمة..

- كل الاستعداد!!

- تذكرين أن نوال تعرضت لحادث!

- نعم، فقد زارتني بكرسيها المتحرك..

ارتجف طرف فمه بسرعة قبل أن يتمالك نفسه أمام نحيب أمه وشقيقته وجليلة المركزة كل حواسها عليه..

- حسنا سأختصر..صدمتك جعلتك تنسين أن نوال توفيت منذ سنوات!!

تردد آخر عبارته في الغشاوة التي التفت لتبتلع وعيها..

- نوال توفيت منذ سنوات!

سمعت بتشويش صوت والدتها التي تضمها وتصرخ..

- أخبرتكما ألا تفعلا! اتصلي بالطبيبة دعيها تأتي فورا..

مشوش ما تراه..

مشوش ما تسمعه..

تشعر أنها متشظية..

متناثرة في سمائها الزرقاء..

تسبح وتحلق مع سمكة برتقالية..

قبلها نورس عائم ثمل..

تحولت إلى عنقاء من نار..

انتفضت وحلقت خارج الأرض من وسط الموج والسحاب..

شعرت بيد تربت برفق على رأسها، إنها يد والدتها، جاهدت لفتح عينيها بصعوبة بالغة، عادت العبارة بكامل قوتها ووضوحها..

- نوال توفيت منذ سنوات..

عادت إلى الوراء، إلى ما بعد ولادة سارة، حينما انتهى نفاسها، طلبت من فؤاد بإصرار أن تبحث عن نوال لأنها فقدت هاتفها وفيه رقمها، وتشعر بالقلق عليها، فرغم قلة لقاءاتهما لأنهما لا يقطنان ذات المدينة، إلا أن تواصلهما في الهاتف لم يتوقف، ولا تستطيع أن توقف القلق داخلها، فلا أحد لنوال سواها!

بعد إصرار وانتحاب أقنعت فؤاد المعاند، رافقها على مضض من سلا إلى مدينة الدار البيضاء المجاورة، حيث تعمل نوال كمستشارة قانونية في فرع إحدى الشركات العالمية، لم تعرف مسكنها الجديد لأن نوال من النوع الذي يضجر دائما، تحب تغيير أماكن إقامتها كي لا تشعر بالالتصاق إلى أي مكان، كما هروبها من الزواج لأنها لا تحب الالتصاق بأي رجل..

تقدمت من فتاة الاستقبال التي تطلعت إليها بابتسامة مرحبة..

- مرحبا سيدتي، أرجو أن تخبري المستشارة القانونية نوال الجيراري أن صديقتها جليلة السعيدي تنتظرها..

لم تعرف فتاة الاستقبال الاسم، فاعتذرت منها بابتسامة ودودة وقد سجلت الاسمين في ورقة أمامها، أجرت مكالمة هاتفية..

- متأسفة لم أعرف صديقتك، أنا مجرد بديلة للموظفة الرئيسية الغائبة في عطلة ولادة..مرحبا غادة أخبري المستشارة القانونية نوال الجيراري أن صديقتها جليلة السعيدي في انتظارها..نعم سأنتظر..

ابتسمت بمودة من جديد لجليلة التي ظهرت عليها ملامح اللهفة، ستسعد جدا نوال بزيارتها غير المتوقعة، تخاف أن تنزل ركضا في طوابق ناطحة السحاب دون أن تنتظر المصعد!

ابتسمت لفكرتها التي لن تكون مستغربة عن نوال..

- نعم إنها هنا..ستنتظر..

اتسعت ابتسامتها وهي تؤكد لجليلة..

- إنها قادمة..

بعد لحظات نظرت جليلة بلهفة صوب باب المصعد المشرع، لم تكن نوال، إنها سيدة أخرى، أبعدت نظراتها عنها بعدم اهتمام..

تبادلت السيدة نظرات مستفهمة مع فتاة الاستقبال التي أشارت صوب جليلة.

اقتربت منها سيدة شاحبة اللون وهي تسأل بأمل..

- أنت جليلة السعيدي، صديقة نوال!؟

نظرت إليها جليلة بتساؤل..

- نعم أنا هي..

أسرعت إليها السيدة تضمها ببكاء..وهي تطلب منها الجلوس على مقعد انتظار..

- يالله..لست أدري كيف أخبرك!؟

صرخت مخاوف جليلة..ابيضت يداها المتمسكتان بحقيبتها بشدة..

- تخبريننني بماذا!؟ أين نوال!؟

ارتبكت السيدة التي لم تستطع السيطرة على دموعها..

- لقد تعرضت نوال لحادث سيارة فظيع، أجرت عمليات كثيرة متتالية على عمودها الفقري، صبر الله قلبك أختي، توفيت منذ أيام في العملية الأخيرة!

شل فهمها، ضحكت بهستيريا..

- هل هذا أحد مقالب نوال!؟

- رحم الله نوال كنت أغلى شخص في حياتها، لم تكف عن السؤال عنك، كانت تتحدث إليك وحدك في لحظاتها الأخيرة!

أطلقت صرخة مدوية أفزعت فتاة الاستقبال التي تجمدت البسمة في شفاهها وهي تسرع إليها مهدئة ومشفقة..

صراخها المجنون أخرج الموظفين وأدخل المارة، الجميع هرع ليعرف سر الصراخ، كانت كالمجنونة تردد "غير ممكن، مستحيل"!

حاولت السيدة تهدئتها دون جدوى، دخل زوجها ليعرف بدوره سبب الضجة، استطاش غضبا حينما وجدها السبب، فسحبها بفظاظة من تلك الفوضى إلى السيارة..

وقبل أن تغادر دست زميلة نوال ورقة في يدها..

- هذا رقم محامي أوصتني المرحومة أن أعطيه إليك لتتصلي به..

ضلت تردد بجنون..

- صديقتي اليتيمة ماتت دون أن أعلم ودون أن أدفنها!

نظرت إلى فؤاد بمقت صارخة..

- أرأيت تماطلك، جئت متأخرة إلى صديقتي..سامحك الله!

تذكرت الورقة، فتحت يدها لتنظر إليها من وسط دموعها، رأت اسم خالد، وقبل أن تكمل الاسم أو تشرح، أخذ فؤاد منها الورقة ومزقها..

- هذا ما كان ينقصني، أن يجعلك خبر موتها كالمجنونة عرضة لعيون من هب ودب، عدلي من حجابك فشعيراتك فرت، جعلت من نفسك فرجة وأضحوكة!؟

رمقته باشمئزاز ونفور..

- من أي طينة أنت!؟ صديقتي الوحيدة..أخت قلبي من ماتت وليس ذبابة!

- الحمد لله أنها توفيت، كنت لا أطيقها.. لا سامحها الله!

- لم تكرهها هكذا!؟ ما أبشعك! وما أقساك!

استمر بكاؤها وحدادها لأشهر، وما زاد من ذلك منع فؤاد لها بالعودة والبحث عن مكان إقامتها..

تذكرت ذلك دفعة واحدة، بكت بلوعة بعبرات ملتهبة كحميم مصابها الجلل..

- قدري أن أبكيك مرتين صديقتي، وأقيم حدادك مرتين..وتكون عدة فقدك إلى الأبد، آه صديقتي! ما أوجع قلبي بفقدك! وكأن الفقد ألفني..

اقتربت منها سيدة لم تعرفها، أشارت للعيون الستة المضطربة والحزينة بالخروج، قدمت نفسها بحنان..

- أنا رجاء إحدى صديقات أختك جميلة، معالجة نفسية تواصلت معي أختك بخصوص حالتك..كيف تشعرين الآن!؟

بكت بلوعة وحرقة..

- أعيش صدمة فقدها من جديد وأسوأ..

لمن كنت أتحدث إذن!؟

رأيتها..

أحسست بدفء ضمتها..

ذكرتني بلحظاتنا الجميلة..

حفزتني بكلماتها القوية لأقفز حزني وأتجاوزه..

ضحكنا معا..تابعنا الأفلام معا..قرأنا معا..لعبنا الشطرنج معا!؟

بكينا معا..تسامرنا معا..تناولنا الطعام معا..كانت معي..أكاد أجن!

- ما مررت به قبل معرفتك بإصابتك بالوباء لم يكن هينا، توالت عليك الصدمات، والعزل الصحي ضغط عليك أكثر..

عليك أن تعلمي أن عقلك ابتكر متنفسا كي لا تجني فعلا..

فما كان يبدو جنونا..

هو طريقة عقلك لينقذك من فقدان عقلك وتظلي قيد الصمود..

فاستعان بأقرب الشخصيات إلى قلبك..

شخصية تثقين بها وتحبينها..

شخصية تظهرين فيها نفسك بكامل ضعفك وعجزك دون أن تشعري بالإحراج، وتكفلت قوتك الداخلية بتحفيزك وجرك إلى بر الآمان..

وما اعترافك وتذكرك لموتها إلا تجاوزا لمرحلة التوهم التي كنت في حاجة إليها في فترة مرضك الوبائي واضطرابك النفسي، والدليل أنك حين تجاوزت ذلك اختفت..ماعدت ترينها!

فغرت جليلة شفتيها بدهشة، ورن في ذاكرتها الصوتية صوت دافئ لجوج..

- فمن نام لم تنتظره الحياة..لا تنامي أبدا لن ينتظرك أحد ولن تنتظرك الحياة، أعرف أنك متعبة وفي حاجة للراحة والنوم، تذكري فقط تفقد بيتي..لا تنسي رواية دهشتنا "عالم صوفي" ستجديني هناك..تذكريني!

غادرت سريرها بلهفة راكضة إلى خزانة الكتب في غرفة الجلوس، حيث عائلتها..

أمام نظراتهم المترقبة الجزعة بحثت عن رواية "عالم صوفي" بين الكتب..وجدتها أخيرا قلبت أوراقها بارتجاف، سقطت منها بطاقة بريدية وردية لطفلة رضيعة كملاك تحمل خط نوال الأنيق..

قرأت بصوت مرتفع وسط دمعها المنهمر..

- ألف مبارك لك صديقتي، أنجبت لنا طفلة أميرة لا بد أن تكون بجمالك وبهاء قلبك، لا أعرف لم هاتفك لا يعمل؟..أعتقد هاتفك ضاع، هذا رقم هاتفي وعنوان منزلي الجديد، لن أغيره أبدا، أنوي الاستقرار فيه..

ألم أخبرك ألا تعتمدي على ذاكرة الهاتف!

أحبك جدا وأطفالك يا أخت قلبي..

صديقتك الوفية نوال..

قفزت بفرح تقبل البطاقة بحرارة، تضحك وتبكي ووالدتها تبكي أكثر..

- كنت أعلم أنك أكثر من وهم صديقتي!

- ابنتي ضاعت!

نحيب والدتها المصدوم جمدها، توقفت دموعها، عانقت والدتها بحنان ونظراتها تحدق في المعالجة النفسية..

- قد يكون كل ما قلته صحيحا، لكن نوال أخبرتني بمعلومات لم أكن أعرفها! استمرت تطلب مني الدعاء لها بإلحاح لم أنتبه لغرابته لانشغالي بصدمتي، أخبرتني بمكان وجود بطاقة تهنئة لم أرها قبلا، فيها رقم هاتفها وعنوانها وإلا لكنت تواصلت معها ولعلمت بحادثتها في حينها، قد يكون توهما لكنه حقيقة!

ضمت والدتها أكثر..

- لست مجنونة أمي! أنا بخير..لم أصل إلى هذا الصفاء قبلا، دعيني أرتدي ملابسي لأرافقكم إلى جلال وجمال فقد اشتقت إليهما..ما أطلبه منك جواد أن تدبر يوما لأجلي لترافقني لزيارة منزل نوال رحمها الله..

- سأفعل أختي بكل فرح..

- سأرافقكما أيضا فقد كانت نوال ابنتي، وحزنت لها مثلك وأكثر، كأم لم أر شخصا لا يحمل دمك يحبك مثلها!

نظرت إليهم بامتنان كبير، نظرات أختها الداعمة والدامعة قالت كل شيء..

العائلة صلبة الدعامات تحملك مهما آل سقفك للسقوط..

تتحملك بشموخ وتقف بثبات في وجه جبروت العواصف وخذلان العواطف..

ومن نعم الله عليها أن أكرمها بعائلة متضامنة محبة لا تسمح بتهاوي أي عضو من أعضائها..

شعرت بالارتياح والآمان والسلام..مشاعر غادرتها منذ زمن..

تذكرت والدتها..

-انتظري ابنتي..خذي هذه الحقيبة فيها ملابس بيضاء لأنك بعد في العدة..

امتعضت جليلة بشدة..

- أمي الملابس البيضاء مجرد بدعة، لا أرتدي ملابس ملونة وهذا هو المنهي عنه في فترة العدة ولست متجملة أو متعطرة..

استنكرت أمها ذلك بشدة..

- ماذا؟ أتريدين أن تصبحي أضحوكة جيرانك وجيراننا! هذا ما كبرنا عليه وعلينا احترامه، لن تخرجي دونها.. بين جدران بيتك افعلي ما تريدين..

حملت الحقيبة مستسلمة، لا جدوى من مجادلة أمها، ارتدت جلبابا أبيضا واسعا ووضعت وشاحا صوفيا دافئا أبيض اللون هو أيضا، رتبت حجابها الأبيض جيدا ووضعت كمامة نظيفة، نظرت إلى نفسها في المرآة، سرت قشعريرة باردة مع عمودها الفقري، بحقيقة صادمة..

إنها أرملة حقا!

أخذت حقيبة بيضاء من الدولاب لتفرغ فيها محتويات حقيبتها السوداء المعتادة على حملها كل خروج..التصقت عينيها مطولا بسرير ابنها الذي جعلته مرقدا لنوال..

ربتت عليه بحنان وشوق..

- رغم تماسك علم النفس كعلم، إلا أن الدفء في قلبي والآمان الذي تركته داخلي يؤكدان لي أنك كنت معي هنا طيفا أو ملاكا أو لطفا بي من الله تعالى، نحن مخلوقات ضعيفة لا يمكننا تجاوز عظمة الله ومعرفة كل الروحانيات التي تغيب عنا..كنت حارستي كما دوما، ودفؤك لن يفارق قلبي، ولن أنساك بالدعاء ما حييت!

غادرت الغرفة بإيمان عميق ويقين عجيب، أضفيا نورا عجيبا على ملامحها الرزينة المشعة..

تأملتها العيون الستة برهبة وصمت صاف لم يعكر صفوه إلا شهقة والدتها الباكية التي اعتراها نفس إحساس جليلة، ابنتها أصبحت أرملة!

ابتسم جواد وغمزها بعينه..

- مرحبا بعودتك شقيقتي الغالية، سيسر بك جمال وجلال كثيرا..

شكرت جليلة المعالجة النفسية وقدمت لها المذكرة من حقيبتها لتدوين اسمها ورقم هاتفها..

راقبت باهتمام ما تكتبه المعالجة رجاء المستغربة والسعيدة..

- تشرفت بك سيدتي رجاء، معك جليلة!

رفعت إليها نظرها بإعجاب..

- وأنت جليلة فعلا، تحملين معنى اسمك عظمة واحتراما ووقارا، سجلت اسمي طمعا في أن نكون صديقتين، أما كمعالجة فلست في حاجتي!

- يشرفني ويسعدني ذلك جدا..

أخذت بطاقة فارغة من العلبة الموضوعة في رف الخزانة، كتبت اسمها ورقمها وقدمته لرجاء بابتسامة..

-لا تثقي في هاتفك كي يحتفظ لك بالأرقام!

أخيرا تجاوزت خطواتها عتبة الباب، قفزت خطواتها فوق السلالم قبل أن تمسكها والدتها المحذرة من ذراعها..

- توقفي عن ذلك..لا تنسي أنك أرملة!

كشرت عن ابتسامة مشاغبة..

- ولأني لم أنس أني أرملة رجل خائن، ، أريد أن أستعيد قدرتي ومهارتي في القفز ولم لا أجرب التحليق أيضا!

سمعت ضحكا مكتوما لجميلة وجواد الذي همس في أذن أخته..

- مستمتع جدا بعودتك شقيقتي!

ولترضي والدتها تصنعت الهدوء والحزن وهي ترد تحية الجيران في العمارة من مسافة آمان، يوزعون العزاء والمباركة..

يعزونها في زوجها وطفلتها ويباركون لها الشفاء من وباء كورونا، رغم خطواتهم المرتابة وشالات الجارات الموضوعة ككمامة بأيديهن على أنوفهن وأفواههن كأنها رائحة نتنة لا مصابة متعافية!

طيلة طريقهم إلى السيارة لم تجد متنفسا لتشعر بالهواء العليل في رئتيها..حتى حارس العمارة والبقال والخضار وبائع لوازم الهاتف والجزار تقدموا لعزائها!

تناهى إلى مسامعهم حديث الجارات خلفهم..

"مسكينة إنها الأرملة التي مات زوجها مع عشيقته في حادثة سير ومعه طفلتها ونقل إليها عدوى كورونا يقولون أنه مات في السيارة بكورونا وذلك سبب الحادث"!

هذه مساوئ السكن الاقتصادي..

كل شقة تعرف التفاصيل الحياتية للشقة المجاورة والبعيدة..

لأن حدائق العمارات هي بمثابة أستوديو تقديم النشرات الإخبارية بين الجارات..

هناك تظهر مواهب التحقيق في الحوادث والجرائم!

دلفت إلى السيارة أخيرا..

-آه أمي أرأيت سلبيات اللباس الأبيض! أعلن لهم:

أنظروا إلي..

أشفقوا علي..

أنا الأرملة!

المسكينة المغفلة التي خانها زوجها!

ما أرحمه العزل المنزلي!

أنبتها والدتها بحدة..

- كفي عن تذمرك وسخريتك!

لست الوحيدة التي خانها أو سيخونها زوجها..

فقط زوجك فضحه أجله بطريقة بشعة!

استدارت تلوح بسبابتها في وجه جواد السائق..

- وأنت أيها البائس إن وصلتني شكوى من زوجتك عن خيانة محتملة أو مرتكبة، سيكون ذلك آخرعهد لي بك!

احتج جواد بذعر..

- لم أفعل شيئا أمي، لم غضبك مني!؟

- فقط أحذرك! لا أحب لأي زوجة أن تختبر ما اختبرته ابنتي، وزوجتك نجاة ابنتي رزقك الله بها من فضله وكرمه، تحبنا وتهتم بنا دائما، أثمن جدا اعتنائها بجليلة وإصرارها على زيارتها وإعداد ألذ الأطباق رغم انشغالها بالبيت وولديكما، دائمة الكرم معنا بمواقف كثيرة لأنها ذات أصل طيب إن تجرأت وأذيتها بخيانة ما، سأنسى أنك ابني!

ضرب جواد كفا بكف ينتظر إشارة المرور..

- لك الله يا ولدي جواد! من دون كل الحموات في المغرب أمك ألطفهن! لم لم تكوني مثل غالبيتهن، يستمتعن بخيانة أولادهن نكاية في كناتهن!؟

- لا تراهن على دعمي..أنا سأقتلك!

ضحك بجنون..

- لو كل الأمهات مثلك، لانقرضت الخيانة!

- حينما أصبحت الأم تبارك لولدها الخطيئة وتشجعه على أعمال تغضب الله وتفتح له أبواب جهنم، فعلى الأمومة والتربية السلام..

لا داعي لإنجاب ذرية تكون فقط حطبا لجهنم!

ابتسمت جليلة المستلقية في المقعد الخلفي قرب جميلة حيث تذكرت حديثها مع نوال حول تربية الأبناء، شعرت أن كل ما تسمعه ليس اعتباطيا بل لهدف سام يساعدها في حياتها مع أبنائها لتربي أفرادا صالحين..

قبل أن تصل إلى منزل والدتها بحي التقدم بالرباط، وعلى مشارف قلعة شالة الساحرة طلبت من أخيها التوقف، نزلت بحماس، رفعت رأسها لأشعة الشمس ومدت ذراعيها كأنها تحلق في تلك الطبيعة المدهشة التي تبدو كلوحة هاربة من التاريخ، لتحرك الريح وشاحها الصوفي، التفتت إليهم ضاحكة..

- أبدو كأحد نوابنا "النوام" أثناء افتتاح الدورة الخريفية للبرلمان، أو بالأحرى ينقصني بعض السواد لأصبح اللقلاق شخصيا!؟

انفجر جواد ضحكا ملء فيه، وبطنه البارزة تهتز لبهجته..

لم يتوقع أن تنتصر أخته على صدمتها بهذه المرونة الكبيرة، كان جزع القلب، اعتقد في فترة هلوستها بصديقتها نوال استسلمت للجنون، لطالما اعتبرها قوية، لكن لم يعتقد أنها قوية إلى هذه الدرجة المبهرة!

نور تلك المروج الخضراء تغلغل إلى دهاليز كيانها الذي تعفن بغربة العزل المنزلي..

استنشقت الهواء بأنين منتش كأنها في صرختها الأولى إلى الحياة..

لكن هذه المرة ليس وهي تجرب التنفس خارج مشيمة أمها، إنما بسبب استعذاب نعمة طالما اعتبرناها من المسلمات..

نعمة الهواء المتجول في مجراه التنفسي الطبيعي دون اعتراض من فيروس كورونا..

الذي جعل من جرعة أوكسجين إكسيرك الوحيد كي تعيش..

دون أن يميزك لغناك أو لفقرك..

لا يهمه من أنت..

لا يهمه منصبك..

لا تهمه حصانتك..

لا يهمه رصيدك الرسمي أو السري داخل أو خارج الوطن..

يهم فقط صلابة مناعتك كي لا يشمعك الفيروس!

شكرت الله على مناعتها التي قاومت هذا الفيروس..

غزاها ندم فظيع لاستهتارها السابق بصحتها في فترة معاناتها النفسية..

إذ أنهكتها بعادات سيئة غير صحية..

إلا أنها كانت كريمة معها ولم تخذلها في معركتها الشرسة ضد الوباء من أجل البقاء!

وصلوا أخيرا إلى المنزل..

قدر شوقها لولديها..

قدر شوقها لمنزل والديها..

بيت الأهل هو ذاكرتك العريقة..

بوصلتك الثابتة كلما تاهت بك الطرقات..

منارتك التي تنجدك من محطاتك الغريقة..

حنينك الدافئ الذي يجندك للأيام القادمة..

تحتاج إلى الاحتماء به وارتشاف دفء ذكرياته..

تحتاج إلى العودة إلى "أنت" الصغير، ذاك الشقي الذي يستمتع برفقة إخوته وأبويه، ذاك المحمي من صفعات الدهر، الذي كان همه الكبير فيه أن يستيقظ وسريره جاف غير مبلل!

جدرانك آمنة..تستيقظ على ذات طقوس طفولتك..رائحة مطبخ أمك..

مكانك حيث كنت تنام، تظل وفيا له كي تمتلئ منه بما ضاع منك..

تأخذ من خزانة بيتكم العتيق بعض شغبك..

بعض شغفك..

تملأ جنبات روحك التي فرغت بفعل قسوة الحياة وجدية مسؤوليتها..

لتعود إلى معركتك في الحياة بنفس أكبر..

لذلك من الضروري للأهل أن يحرصوا على بيت مستقر وثابت لأولادهم كي يبنوا لبنات ذكرياتهم لبنة لبنة، ومهما توزعوا وانتشروا في ربوع الأرض، يعيدهم الحنين إلى بيت العائلة العتيق كي يجتمعوا كلهم بامتداداتهم الجديدة ذات وقت حميمي بهيج!

اتفقت معهم على فتح الباب لتدلف بسرعة إلى المنزل قبل أن يراها الجيران، الذين سيتوافدون تباعا لعزائها دون أن تشبع من ولديها..

كان لها ما أرادت، اتصل جواد بزوجته ليطلب منها تهيئ الجو وتحرص على دخول جلال وجمال للغرفة المخصصة لهما، كي تفاجئهما والدتهما!

طرقت باب الغرفة، إنها ذات الغرفة التي كانت لها وجميلة قبل أن يتزوجا، سمعت صوت جلال يعطيها إذن الدخول..

كانا على المكتب الصغير، جلال يساعد جمال على فهم تمرين في الرياضيات، رفعا رأسيهما إليها، فشاهداها..

لوهلة لم يعرفاها بزيها الأبيض، حدقا فيها لحظات بصدمة خرساء، قبل أن يتقافزا بصراخ فرح ويلقيا بنفسيهما في ذراعيها المفتوحين، شعرت أن كبدها ترمم بعد التحام قطعه الناقصة، مع أنه غير كامل بفقد سارتها..

-اشتقت إليكما صغيري..حبيبي والدتكما..

لا أصدق من حضن الأم مع أبنائها..

- مسرور أنك شفيت أمي، نحن بحاجتك..

- وأنا أيضا بحاجتكما صغيري..

في المساء وقبل أن تعود إلى الشقة، استأذنتهما ليؤجلا ذلك إلى الغد كي تعيد تعقيم البيت احتياطا..ضمتهما بحنان دافق..

- نحن اليوم ستختلف حياتنا عما كانت عليه، نحن منحنا فرصة جديدة في الحياة ، ستكون لنا أهداف دقيقة وسنساعد ونساند بعضنا لنتجاوز خسارتنا، سنحرص على الصلاة، سنصلي الفجر جميعا ونكثر من قراءة القرآن والدعاء له، فأنتما ولديه وأريدكما أن تكونا ولديه الصالحين لأنه يحتاجكما!

أنهت جليلة فترة العدة ما بين منزلها و منزل والدتها واستقبال المعزين هنا وهناك، فجميعهم لم يكترثوا لشروط السلامة رغم تحذير جليلة المستمر وحرصها على التعقيم والكمامة لأنها اختبرت سم الوباء..

إلا أن والدتها استنكرت..

- أتريدين أن نقفل الباب في وجه المعزين!

وكالعادة لا تملك شيئا أمام إصرارها..كما حدث حين ألحت على حتمية مرافقتها إلى شقتها كأنها خشيت عليها من هلوسة نوال..

- لا يمكن أن أترك ابنتي في عدتها وحدها، حرمت من الاعتناء بك في إصابتك، لن أحرم نفسي من الاعتناء بك في عدتك..حالما تنتهي مدتها سأعود إلى بيتي!

أجلت في هذه الفترة مسألة نوال حتى تنهي عدتها لتكون حرة في التنقل والمبيت إن دعتها لذلك الظروف..

قبل انتهاء عدتها بأيام، اتصلت بها والدتها..

- مرحبا ابنتي كيف حالك! جاء محامي من مدينة الدارالبيضاء يسأل عنك، تجهزي بسرعة مع الطفلين وأحضري معك بطاقة هويتك، سيمر جواد لاصطحابكم، لا تتأخري فالمحامي ينتظر في المقهى المجاور للبيت، لأنني بمفردي..أرأيت كم ألحت عليك بالانتقال إلى هنا لنؤنس بعضنا!

- حسنا أمي سنناقش الأمر لاحقا، ألم يخبرك المحامي عن سبب سؤاله عني!

- كلا لم يخبرني..طلب حضورك شخصيا..

- سيجدني جواد جاهزة..

بعض لحظات اتصل جواد..

- مرحبا أختي، هل جهزتم؟ أنا أسفل العمارة..هل تحتاجين إلى بطل في حمل الأثقال!

ضحكت بحنان..

- خفيفة كالريشة أنا أخي..حفظك الله يا أغلى أخ..قادمون فورا..

مباشرة بعد دخولهم إلى المنزل، قدمت أمها رقم المحامي لجواد ليتصل به..

- مرحبا سيدي، أنا شقيق السيدة جليلة مرحبا بك إنها هنا، ستجدني في انتظارك أمام باب المنزل..

بعد لحظات دخل جواد رفقة رجل كهل غزا الشيب رأسه، يحمل حقيبة جلدية سوداء، بعد إجراءات التعقيم أدخله جواد إلى الصالون، وطلب من والدته وجليلة الحضور..

نظر إلى جليلة نظرة خاطفة وظهر الاعتذار على ملامحه..

- مرحبا بك ابنتي، وأخيرا عثرت عليك! أنا المحامي خالد المذكوري، كلفتني المرحومة نوال الجيراري بتنفيذ وصيتها، للأسف لم نتوقع أن تغادر بتلك السرعة، ومع ذلك كأنها شعرت بقرب الأجل، طلبت مني أن أحتفظ بوصيتها احتياطا، كانت تلميذتي وابنتي رحمها الله، كانت متدربة نشيطة في مكتبي لسنوات..

جاهدت جليلة لتحافظ على رباطة جأشها وتكبح دموعها..وهي تسمع بانتباه لأخبار صديقتها..

- كنت قد أصبت بمرض السرطان، وقبل وفاتها بأيام سافرت لفرنسا من أجل العلاج، لم أعد إلا منذ سنة بعد تعافي الحمد لله، ورغم أنني تركت أعمالي في عهدة فريقي إلا أنهم عجزوا عن إيجادك لأننا كنا نتوفر على اسمك ولقبك دون عنوانك أو هاتفك، مما صعب أمر العثور عليك لأننا وجدنا أسماء أخرى بذات اسمك، وكنت آخر الأسماء المقترحة وأشكر الله أني سأستطيع تنفيذ وصية نوال رحمها الله..

فتح حقيبته، أخرج بعض الملفات ومجموعة من المفاتيح، هذه الأخيرة قدمها لجليلة..

- تفضلي ابنتي هذه مفاتيح منزل نوال الذي كلفت ابني بالحفاظ على نظافته كل ثلاثة أشهر، لقد أوصت به لك، مع كل ممتلكاتها..إذ ورثت بعض الممتلكات من عمها الوحيد..

تورمت عيناها بالبكاء، هذا هو الخبر السار الذي أرادت أن تخبرها به في آخر اتصال لهما، إلا أن خبر ولادة سارة طغى على حديثهما..آه صديقتي، ما أقساه فقدك!

أبشع ما قد تفعله بك الحياة..

أن تحرمك من قلب أحبك في الله بصدق وتفان..

لا يرغب منك بشيء..

يرغب فقط برؤيتك مبتهجا ومغتبطا..

يشع الجذل منه إذا ضحكت..

وينطفئ من أعماقه إذا ابتأست..

امتلاكك لهذا النوع من القلوب هو ثراء فاحش..

وفقده إفلاس عاطفي موجع!

وجليلة بفقدها لنوال عرفت إفلاسا أسوأ من إفلاس كورونا..

شيء من الرهبة والخوف طبعا انتظارها لذلك اليوم الموعود، تركت جمال وجلال في عهدة نجاة زوجة أخيها، ورافقها جواد ووالدتها إلى مدينة الدار البيضاء، كي تزور منزل صديقتها الراحلة، رغبة في العثور على

ما تبقى من صديقتها!

أدخل جواد عنوان المنزل في جهاز تحديد المواقع في سيارته، عثروا عليه دون عناء، كانت صامتة طيلة الرحلة، تستعيد كلمات نوال في عزلها الصحي..

أوقف جواد سيارته..

- وصلنا جليلة إلى وجهتك!

تيقظت حواسها لكلامه، لتنظر إلى المنزل الذي أشار إليه بعدما تأكد من عنوانه ورقمه، اندهشت من مساحته الكبيرة وموقعه في منطقة راقية، منزل أنيق مكون من أربعة طوابق، لم تستغرب..هذه هي نوال!

فاليتيم يبحث دوما عن الشساعة ليخفي وحدته..

وليجمع حوله أكبر عدد من الأفراد كي يعدم عزلته الاجتماعية..

ويوهم نفسه أنه لا يعيش وحيدا!

أمسكت بيدها مقبض الباب كأنها تعزيه لفقده صاحبته..

ألقت برأسها على الباب الحديدي دون أن تتوقف دموعها عن الانهمار..

واقفة بإلحاح كنخلة دمشقية باسقة..

تتشبث بأمل رؤية نوال تفتح الباب..

ترحب وتتجول بها بفرح وحماس بين الغرف والطوابق..

بقي جسدها خارجا، ودخلت روحها تتجول داخلا..

جرب جواد المفاتيح حتى عثر على مفتاح الباب الخارجي، مال جانبا ليسمح لأخته بالدخول، ليضغط زر نور الرواق، تسمرت هناك، رفعت رأسها لتتابع بنظراتها السلالم الممتدة أمامها، كأنها تنتظر نزول نوال الملوكي، كما دخل طيفها باستعراض إلى غرفة الجلوس في شقتها..

استشعرت عبيرها..

استدارت لترفع الستارة أسفل الدرج..

إنه الكرسي المتحرك الخاص بنوال، تحسسته بذهول وشعرت بالقشعريرة تسري في عمودها الفقري، نظرت إلى أخيها بعيون دامعة..

- أتثق بي!؟

أومأ برأسه إيجابا..همست له بحرص كي لا تسمعها والدتها..

- إنه نفسه الذي زارتني به نوال!؟

ظهر الذهول على ملامحه، ولأول مرة يشعر بالرهبة ويستشعر تجربة أخته الروحية الغامضة، أممكن أن يصل التخاطر بين روحين متآلفتين إلى هذا الحد من الغرابة!؟

هم بصعود السلالم، أوقفته وهي مسمرة خلف باب الطابق السفلي..

- إنها هنا! (تداركت)أقصد كانت تقيم هنا بسبب إصابتها بعد الحادث..

أول مفتاح يجربه جواد كان المفتاح المنشود..

توسعت حدقتيها بانبهار لرؤية شقة جميلة مرتبة وأنيقة جدا مع أثاث متناسق، صالونين متقابلين، واحد تقليدي مغربي والآخر عصري إيطالي بآرائك جلدية بنية لامعة ونظيفة، لا بد أن زيارة ابن المحامي كانت قريبة لأنها نظيفة تماما، ووالدتها تردد بإعجاب..

- ما شاء الله ولا قوة إلا بالله، ما أجمله من بيت!

تركوا أحذيتهم في المدخل، ومن دولاب الأحذية أخذت جليلة بعض النعال المنزلية، وزعتها عليهم وتمسكت بخف ناعم دافئ ارتدته وشعرت فيه بدفء قدمي نوال!

سكون رهيب انتاب جليلة، قادتها خطواتها إلى غرفة مقفلة فتحتها ودخلت، تبعها جواد لكن يد والدته أوقفته وأشارت إليه ليتركها وحدها..

إنها غرفة غاليتها نوال، غرفة فسيحة مرتبة، تلفاز كبير يتوسط الجدار المقابل للسرير، الذي يمتد على يساره دولاب بحجم طول الغرفة، وعلى يمينه مكتب صغير مع خزانة كتب رائعة..

ابتسمت وهي تتذكر ذات حديث لهما عن أحلامهما..

- سأكون خلافا لكل النساء اللواتي يخصصن في غرفهن مكانا لتعديل زينتهن، ستكون عدة زينتي خزانة كبيرة أتأنق منها بكتاب قبل النوم..

تنهدت بوجع وآسى..

- آه صديقتي! فخورة بك أنك حققت أمنيتك، لا بد أنك غادرت وأنت في أبهى زينتك!

اقتربت من المكتب، جلست فوق كرسيه الوثير، حملت إطار صورة مقلوبة، اقشعر جسدها انفجر صبرها وجلدها وهي تطالع صورة لهما في عناق ضاحك وصادق وفخور، كانت صورتهما يوم الحصول على الماستر، ضمتها إلى صدرها بتوق وشوق..

- ها أنا أذبح بفقدك القاسي مرتين صديقتي!

جثت على ركبتيها، رفعت غطاء السرير كما أخبرتها، وجدت علبة كبيرة متينة رغم ظهور التقادم على حوافها نتيجة السنوات وسحبها من أجل تنظيف أسفلها..

كانت مقفلة بإحكام، بذات عقدة نوال المميزة التي تعرفها جليلة نتيجة سكنهما معا أيام الجامعة وترحالهما في الأبحاث الميدانية..

سحبتها، إنها ثقيلة..وضعتها فوق السرير بعدما وضعت عليه لحافا كان مطويا فوق كرسي المكتب..

فتحتها، وجدت مجموعة من العلب تحتوي مجوهرات نوال التي كانت مولوعة باقتنائها، وعلبة متوسطة حمراء تضم سوارا ذهبيا منقوش عليه اسمها مع طاقمه كاملا وذات الطاقم بنسخته المصغرة منقوش عليه اسم

"سارتنا" وفيه بطاقة مكتوب فيها بخط نوال" مبارك لك يا أحلى أم في الوجود، ومرحبا بك أيتها الأميرة إلى الحياة" وأسفله توقيعها "الخالة نوال"، ضمتها بانتحاب..

- يا حرقة قلبي! علمت أني سأسميها سارة قبل أن أخبرك، كنت واثقة مني يا أخت القلب أني سأستجيب لرغبتك!

وجدت كل ألبومات صورها وشواهدها والدبلومات التي حصلت عليها، وجواز سفرها ومذكرة سوداء على غلافها ملصق مكتوب فيه "إلى نوال"..

أنزلت الصندوق واستلقت وسط السرير مكان نوال، ضمت وسادتها..

- كم أغبطك أيتها الوسادة!

كم كنت أقرب إليها مني..

كم كنت أوفى لها مني..

آه أخبريني ماذا فضفضت لك عن وحدتها مع وجعها..

أخبريني هل قاست وصرخت وحيدة!

كوني خائنة الأمانة وافشي لي معاناتها..

كم مرة جففت دموعها وخنقت صراخها..

عاتبيني..

اصرخي بي ما أسوأك من صديقة يا جليلة!

استسلمت لخوفي من فؤاد حتى فقدت صديقتي دون أن أراها أو أدعمها أو أودعها!

أجهشت في بكاء عنيف وصل إلى مسامع والدتها وشقيقها اللذين أدركا أنها في حاجة إلى تلك الخلوة..

جففت دموعها، نظرت إلى المذكرة التي كانت تضمها بقوة إلى صدرها، فتحتها وقرأت..

بسم الله الرحمان الرحيم

"إذا كنت تقرئين كلماتي هذه، فهذا يعني أني انتقلت إلى دار البقاء، لا تنسيني صديقتي من الدعاء"!

استغربت بدهشة..

- إنه نفس الطلب اللجوج لنوال المتخيلة..لا أعتقدك متخيلة غاليتي!

استمرت تقرأ..

"لا أدري ما سأخبرك،! انقطعت عني أخبارك فجأة، شعرت بالضياع بالخوف أن يكون زوجك أجبرك على تركي وخيرك بيننا، لأعود وأقول لنفسي التي تعرفك لا يمكن أن تتخلي عني، ثقتي بك أخبرتني أن هاتفك ضاع، ولأول مرة أندم لرفضي فتح حساب في الفايسبوك، حتى اسمك المستعار نسيته لأني لم أهتم له، فتواصلنا في الهاتف والواتساب كان كافيا، ما كان مني إلا أن أخذت عطلة من يومين وجئت إليك بلهفة، طبعا ولأنني لا أعرف عنوان شقتك الجديدة، قصدت منزلكم أولا، لم أجد والدتك أخبرتني جارة لكم أنها تسهر على مساعدتك لأنك نفساء بعد، اضطررت للذهاب إلى

مكان عمل زوجك رغم كرهي لذلك، تعلمين أننا لم نطق بعضنا منذ البداية، وازداد بغضي له من رؤيتك تذبلين دون أن تخبريني عن خذلانه لك، كنت أشعر به وغدا لئيما، ومع ذلك رغبتي في رؤيتك فاقت بغضي له..

قبل الوصول إلى مكان عمله توقفت عند مطعم لتناول وجبة الغذاء، فشدة لهفتي لرؤيتك جعلتني أغادر دون تناول وجبة الفطور، وأنا في نهاية وجبتي سمعت قهقهات عالية ومائعة أزعجتني، وبداعي الفضول استدرت وليتني لم أفعل، وجدت زوجك برفقة سيدة يطوقها بذراعيه ويضحك كما لم أره أبدا، غص الأكل في حلقي، شعرت بالغضب والغثيان، رغبت في قتله..لم أشعر بنفسي إلا وأنا واقفة كالجحيم فوق رأسيهما، الذعر الذي رأيته فيه كان كافيا لقتله، أصبح كجرذ مرتعش وهو يسحب ذراعه من خصرها..

- كيف حالك سيد فؤاد، مبارك لك مولودتك الجديدة، كيف حال زوجتك جليلة الجليلة!؟

قلتها وعيني كرصاصتين على وجه تلك القذرة البشعة التي لن تجرؤ على الصمود في وجه نورك..كان الاشمئزاز باديا على ملامحي، لأول مرة تظهر علي الرغبة في القتل، شعرت بخوفه مني، استجداني ألا أخبرك..نظرت إليه باحتقار وشفقة وأنا أسلمه مظروفا فيه مبلغ من المال كعقيقة لسارتي الصغيرة ، ومعه بطاقة تهنئة فيها عنواني الجديد وهاتفي لأني أدركت أنك لم تستجيبي لنصيحتي وتسجلي الأرقام المهمة في مذكرة دون الاعتماد على الهاتف فقط، كنت أنوي زيارتك بإلحاح، لكن رؤيتي لزوجك متلبسا بالخيانة أشعرتني بالمرض، علمت أني لن أستطيع الصمود أمامك وأنت بعد نفساء في أسبوعك الثاني، غادرت غاضبة جدا وعدت أدراجي، مرت أربعة أيام

دون أي اتصال منك، فعلمت أن اللئيم لم يعطك الظرف لأنه مرعوب من أن أفشي خيانته لك، كنت عازمة على عدم إخبارك حتى تتمي نفاسك، لأني لم أكن لأسمح لنفسي بتركك مخدوعة مع رجل تخليت معه على كل أحلامك كي تعيشي في ظله!

قررت أن أشتري هدايا لك ولسارتي وأعود لزيارتك من جديد، وهذه المرة سأنتظر والدتك أو أتربص بالوغد الخائن في عمله أثناء عودته للبيت!

لكن قبل أن أغادر موقف السيارة بعد تبضعي، اصطدمت بي شاحنة كانت ستقتلني مباشرة لو أدركتني وأنا بعد في حقيبة السيارة حيث وضعت أغراض تبضعي..أصبت إصابات بليغة في راسي وفي عمودي الفقري أجريت أربع عمليات، وأنا مقبلة اليوم على الخامسة، وأشعر أني لن أنجو..(عجيب إنها نفس التفاصيل التي عرفتها من طيف نوال)،

كم مشتاقة لرؤيتك، سامحه الله زوجك حرمني منك ومن ضم سارتي وإخبارها أن لها أما أخرى تعشقها قبل أن تراها، أردت أن أخبرك كيف ابتسمت لي الحياة حتى الشدقين، ذاك العم الذي أخذته مشاريعه وأسفاره عن السؤال عني وألهته عن تأسيس أسرة، أصيب بسكتة قلبية مفاجئة فتكت به بسرعة في عز نجاحه وانتشاره وقوته، ودفن وحيدا في فرنسا دون أن أحضر جنازته، ولأني وريثته الوحيدة ترك لي ما كان يركض في جمعه، كنت أريد أن أفاجئك بذلك وأقترح عليك أن نقوم بشركة محاماة خاصة بنا، وقبل ذلك بقليل كنت قد اقتنيت منزلا من مدخرات عملي طيلة سنوات، وإلا لاخترت العاصمة لأستقر قربك، لأني تعبت من وحدتي، رغبت في خلق ذكريات تخصني..أردت أن أتعلق بمنزل ويتعلق بي، كانت تلك

مفاجأتي لك، لكن ضبطي لخيانة ذلك البائس أغضبتني، والحادث كان سجني الذي منعني من الوصول إليك!

ومع ذلك لا أملك إلا أن أنصحك بإخلاص..

إذا كنت تحبين زوجك بعد..

اصفحي عنه وامنحيه فرصة أخرى ولا تعطيه كل ثقتك..

اصنعي مستقبلا يخصك كي لا تنهاري إن خذلك..

ويسعدني جدا أن أترك لك ميراثي كي تستمري معه باختيارك..

وليس بسبب عجزك عن تدبر أمورك المادية..

كم أرغب برؤية شحوب وجهه..

الحياة ابتسمت لي بأنياب..

لست متأسفة..

عشت حياة جميلة لا أذكر منها إلا ما ابتدأ معك!

منحتني حبا ووفاء وصداقة وعائلة..

جعلتني منك وفيك..

كنت دوما الفرح المشرق في حياتي..

حملت هم فرحك في حياتي ولا أعتقدني سأنساه بوفاتي!

أخت قلبي كيف أخبرك أني استسلمت وبي أمل أن تجديني..

لأنك وريثتي وحسي في الحياة بعد موتي..

آمل أن تكوني ولدي الصالح الذي حرمت منه ليصلني دعاؤك في قبري!

أنت صداقتي الخالدة وصدقتي الجارية ، أترك لك كل ما أملك عساه يأتيك في وقت ضيق ليفك كربك ويفرج همك..

لم يسعفني العمر لأشكر عمي على تركته لي فأرجو أن تفعلي أنت..

من قلب نقي صادق أحبك في الله، أتمنى لك سعادة بحجم جمال قلبك الذي احتواني يتيمة وجعل لي امتدادا وجذورا في عروقه..

كوني بخير دائما كي أكون بخير حيث أنا!

لا تنسيني من دعائك أخت قلبي..

أحبك في الله يا أخت القلب..

أحببتك هنا وسأظل أحبك هناك..

وأدعو الله أن يجعلني رفيقتك في الجنة..

لا تنسي اتصلي بالمحامي خالد المذكوري سيتكفل بتنفيذ وصيتي، جميع أملاك عمي في فرنسا بعتها وهي في حساب في البنك، كل الوثائق جاهزة باسمك تنتظر توقيعك فقط، وقد منحته تفويضا مؤقتا بالمتابعة إلى حين عثوره عليك..

لا تتركيني دون دعاء فنحن الأيتام ليس لنا إلا الأوفياء من القلوب التي تلهج لنا بالدعاء عند موتنا!

لعينيك وهج يضيع في قلب الشمس..

تدثري بحرصي يا أخت الحلم..

وارفعي عنك خوف الغد..

تائهة كنت أقضم الانتظار صبرا..

لا تبتعدي فما هان البعد دونك..

سأرافق خطوك حتى يشتد..

فما الصديق إن لم يمسح حزن الخد..

توهجي لألمع وأستريح..

ضجي بحسي دعاءا لأخلد بك..

صديقتك المخلصة نوال.

تبلل شالها بدموعها الغزيرة، استيقظ خنجر الخيانة داخلها ليلتف بعنف في أحشائها، يمزق ما جاهدت على بنائه بمسامحته، كم عساها تغفر له؟ كيف حرمها من الوقوف إلى جانب صديقتها وتشيعها لمثواها الأخير!؟

ارتفع صوت نحيبها حتى اختنق صدرها ووصل صدى كحتها لوالدتها الجالسة في كرسي قرب غرفة نوال..

أسرعت بالدخول دون أن تطرق الباب، ليتبعها جواد بقارورة ماء في يده كأنه استشعر حاجة أخته لها..

ضمها إلى صدره باكيا..

- لا توجعي قلبي بك شقيقتي، يقتلني نحيبك وانهيارك..

نظرت إليه من بين شهقاتها..

- جاءت إلى مدينتي كي تزورني، تركت لي رقم هاتفها وعنوانها لفؤاد الذي ضبطته مع عشيقته، لم يسلمني البطاقة، أخفاها في كتاب أهدته لي نوال، أخبرتني بها حينما زارتني طيفا، لست متوهمة لست مجنونة، وجدت طريقة كي تتواصل معي وترشدني إلى ما ضاع عني..آه ما أقساه! كم آذاني! سامحه الله لأجلك نوال، أنت من أقنعني أن مسامحته هي طريقتي للتعافي، سامحك الله فؤاد..سامحك الله!
عصرها إليه..
- لو لم يمت ذاك البائس لقتلته لما فعله بك!
- أرجوك توقف، كل الأموات يحتاجون إلى الدعاء ولا شيء غير الدعاء!
-أعتذر منك شقيقتي..لم أتحمل أذيته لك..
قدمت إليه رسالة نوال دون أن تتوقف عن البكاء وهذه المرة في حضن والدتها..
ظهرت معالم الذهول على وجه فؤاد حينما أنهاها..
- لم أر صداقة كهذه في حياتي! أكرمكما الله ببعض..
عزاؤك أنك كنت أغلى ما لديها في الحياة، وعليك أن تثبتي لها أنك تستحقين ذلك فعلا!
مسحت دموعها بكف قميصها، وبرقت عيناها ببريق جديد..
- نعم سأثبت لها، ساعدتني كي أعثر على طريقة لأخرج من انهياري ومرضي، لم تتركني لضياعي حتى وهي ميتة، أرسلها الله لتساعدني، وسأكون لها أكثر مما أملت وطلبت!

رحمك الله وأحسن إليك صديقتي الطيبة..
فتحت الصندوق من جديد لتظهر محتوياته لشقيقها ووالدتها التي اندهشت..
- سبحان الله! يا لنزاهة المحامي والمسؤولة عن تنظيف البيت، لم يسطوا على محتويات العلبة والمنزل رغم مرور الأيام وعدم ظهورك!؟
- نعم، يبدو أن الطيور فعلا على أشكالها تقع..ونوال دوما كانت تجيد انتقاء الأشخاص لصفائها وصدقها!
مرت ثلاثة أشهر على ذلك، أشرفت فيها على الانتهاء من الإجراءات القانونية، تفاجأت بثراء عم نوال الذي أحجم عن مساعدتها قيد حياته رغم أنها الوحيدة المتبقية من عائلته، ولسخرية القدر ورثت عنه كل ممتلكاته، مع أن الأجل لم يسمح لها هي الأخرى بالاستمتاع بها..
في الأيام التي تلت انهمكت جليلة وأخيها جواد والمحامي في تحقيق كل ما خططت لفعله بميراثها من نوال..
بعدها طلبت من أخيها إخبار المحامي خالد المذكوري برغبتها في زيارة قبر نوال..حيث كان لها ذلك..
بعدما قرأ المحامي خالد سورة الفاتحة على روح نوال غادر لالتزامه بموعد، ابتعد جواد قليلا ليفسح لها الحرية في خلوتها بصديقتها..
جثت على ركبتيها بأنين وتأوه..

- سلام لروحك الطيبة حيثما أنت صديقتي..يا حسرة قلبي، كم بكيت يوم وصلتني أخبارك..صرت كالمجنونة..صرخت بأعلى صوتي، لعنت من أعماقي اللص الذي سرق الهاتف وسرقك مني..حتى صور آخر لقاء لنا سرقت..

سرقة الهاتف بصوره وأرقامه أسوا سرقة!

كيف لسارق ذكريات وحياة أن ينام هانئ البال مطمئن الضمير!؟

لن أسامحه..

سأحاسبه عند الله تعالى، لأنه جعلني معطوبة بغيابك..

وحرمك من رفيقتك الوحيدة في الحياة وأنت تغادرين..

والنهاية كتبها زوجي حين منع عني بطاقتك!

كنت مكبلة قبلا بزوج يعد خطواتي ودقائق خروجي وعودتي..

اليوم الوقت كله لي..

لم يعد وقتي ملكا لغيري..

إنه ملك لي أنا وحدي..

وقد أنفقته كما يحلو لي لإيجادك..

كنت أحتاج فقط إلى وقت كي أعثر عليك..

وها أنا وجدتك بعدما استنفذت أنت وقتك!

ومع أن الجميع اعتبرني مجنونة وأنا أتحدث إلى ميتة..إلا أنه في أعماقي ممتنة لك..شعرت بك..شعرت بلهفتك..بدفئك..

كأن إحساسك بحاجتي إليك أعادك إلي طيفا أو وهما أو حلما..

المهم أنك كنت هنا، كنت أراك بقلبي ومحبتي لك، تواجدك الغامض أعادني من الجنون..

لو يدركون أن ما رأوه جنونا هو ما أنقذني فعلا من الجنون!

شعرت بحاجتي وأنت حية..

وها أنت تخرقين العادة وتشعرين بها وأنت ميتة!

أكان مقدر لي أن تكون خسارتي فيك كارثية مرتين!؟

أم أن يدك البيضاء التي مدت لي من السماء استمرارا لرابط صداقة وفية لم ينفصم عراها بالموت!؟

أتراك أنقذتني كي تقوديني إلى قبرك!

كي أجعله مزاري الوفي لآنس وحدتك وأزورك بطبق أدعية نوراني يغبطك به الأموات..

كأنك مت مرة أخرى في موتك لأن لا حي لك يذكرك!

فجئت لإيقاظي من سبات انهماكي في الحياة لأكون عملك الصالح لأني وحيدتك في الدنيا..

وكنت وحيدتي وفاءا بين الأحياء والأموات سواء..

احجزي لي مكانا قربك..

لن أتمنى من الله أكثر من أن يجعلني رفيقتك في الجنة أيتها الوفية!

كان علي أن أعلم أنك طيف حينما استهترت بالكمامة والتعقيم والوباء..كان علي أن أعلم يوم ضممتني بوبائي أنك ميتة..فالأحياء غريزة البقاء فيهم تهرب من حامل الوباء..فكيف بضمه والعيش معه في ذات الغرفة!؟

كنت مؤنستي أيام العزل الصحي القاسي..

اختبرت بعضا من وحشتك..

ووعد صادق مني أني سأكون ودعائي مؤنساك في الآخرة إلى أن نلتقي، والمؤكد حديثنا هناك لن يكون مؤلما كما هنا، لن يكون عن خيباتنا في الحياة، سيكون فرحا وبهجة كما كان وجودك في حياتي..

وكما أسعدتني أدعو الله أن يسعدك، وأدعو الله بقلب صادق أن يجعل كل همي الآخرة، كي ألتحق بك وأنا من المؤمنات الخاشعات..

لم أعرف أحاجتي إليك من صورك لي طيفا!؟ أم حاجتك لأعثر على ما تركته لي!

كأنك تجبريني على تذكر أنني وريثتك الوحيدة وحسك الوحيد في الدنيا كي لا أنساك بالدعاء والصدقة..

لم أرغب في زيارتك حتى أنجز ما قررته..

وفاء مني لك ولثقتك بي، منزلك بطوابقه الأربعة الذي تركته لي تبرعت به لجمعية رعاية الأيتام، وطلبت من رئيسة الجمعية التي بكت دمعا أن يحمل ملحق بيتك اسمك ولقبك..

كي تكوني أما لهم جميعهم..

لم أكتفي بذلك..

جهزت لهم مكتبة ضخمة في إحدى الغرف بجميع الكتب التي عشقتها يوما..وأخرى جعلتها مسجدا صغيرا..والطابق السفلي جهزته روضا للأطفال وأسميته باسم سارتنا الصغيرة..

ومن مال عمك أسست مدرسة لحفظ القرآن ودارا للأيتام ومعملا للشباب أسميتهم باسمه كما طلبت لأنه يتيم مثلك، كما أسست ناديا نسائيا لتدريب النساء في ظروف صعبة على طرق العيش الكريم، وحفرت بعض الآبار باسمك وعمك في بعض القرى الفقيرة..

وكما كنت كريمة مع عمك لم أملك إلا أن أكون كريمة مع فؤاد رغم أذيته لنا وبنيت مسجدا باسمه ليكون صدقة جارية لروحه..

أخبرك صديقتي أن الفقد أيضا كان كريما معي بعد، علمت أن حماتي بديعة توفيت بسبب مضاعفات فيروس كورونا، لكن عمة صغاري خولة شفيت وأصبحت بخير وتم توزيع ميراثهم لأحصل على حصة طفلي لأني ولية أمرهما، بعت الشقة وأضفتها إلى مبلغ الميراث واقتنيت منزلا ريفيا في قرية "عين عودة" المجاورة للعاصمة الرباط، جاءت والدتي للعيش معي، احتفظت من مالك بما يكفيني لتأسيس مركز تجاري محترم بالقرية يشرف عليه أخي الذي انتقل بدوره للجوار، ومكتبة كبيرة أشرف عليها مع قاعة كبيرة للمطالعة وللندوات..

وفي العام المقبل إن ظهرت انفراجات وباء كورونا سأبدأ بالحج أنا وأمي وأخي كأول أمنية في قائمتي، وسأدعو لك بالرحمة حيثما كنت صديقتي..

وأطمئنك لن أتنازل عن تحقيق كل قائمتي! تركت لها ما يكفيها..

فلحلمي علي حقا! لذلك جعلتني أكتبها أيتها المخادعة!

(مازحت قبرها بابتسامة وهي تمسح بكفها دموعها)

رغم كل الصدقات الجارية التي جعلتها باسمك..

شعرت أنني مقصرة..

هذا وحده ليس كافيا!

كنت أريد لك حياة خالدة تستمر دوني!

أردت أن أعرفك إلى الجميع..

أردت أن يعرفوا كرم الله معي..

أردت أن يعرفوا أن الله أكرمني بصديقة وفية قيد حياتها ومماتها!

أردت أن أخبر من ضاقت به الأزمات في فترة الوباء، أنهم وإن خذلوا من الأحياء فمن الأموات من يحمل همهم!

أردت من الأحياء الذين اختبروا وحشة العزل الصحي ألا ينسوا بالدعاء أمواتهم الذين يختبرون وحشة القبور!

أردت أن لا يموت الأموات فعلا بنسيان الأحياء لهم!

والأكثر أردت من قصتك أن تكون ذكرى لكل الأموات الأيتام لتصبح تذكرتهم للخلود في قلوب الناس..

لذلك طلبت من كاتبة أحبها أن تخلدك في رواية توقظ الأحياء الغافلين ليتذكروا موتاهم!

لأننا يوما ما سنصبح مثلهم وسنحتاج لمن يذكرهم بنا..

صدقت جدا حين أخبرتني بحرقة أن "الغربة الوجودية الحقيقية أن تكون يتيما في القبر دون علم ينتفع به أو صدقة جارية أو ولد صالح يدعو لك..

الغربة الحقيقية أن تكون بموتك أقفلت رصيد حسناتك..

المحظوظ من يترك واحدا مما ذكر كي تتجدد عليه الرحمات بعد موته..

لا تترك حياتك يتيمة من خيرك..

وكي لا تموت يتيما..

ازرع قيد حياتك ما استطعت وانسه..فحصادك هناك سيكون الأسعد".

قد تكون نوال طيفا أو وهما، لكن الأكيد أن الله سبحانه وتعالى له جنوده المجندة يرسلهم لطفا بكل من ضاقت بهم السبل..

فالحمد والشكر لله دائما وأبدا..

تمت بحمد الله

إلى روح والدي..

دعواتكم له بالرحمة والمغفرة

رحم الله موتانا وموتاكم ورزقهم الله الجنة بغير حساب

Hassaniadarkaoui@gmail.com

Hassaniadarkaoui

@hassaniadarkawi حسنية الدرقاوي

حسنية الدرقاوي

كي لا تموت يتيما

رواية

حسنية الدرقاوي

- كاتبة مغربية من مواليد فاس 24- 04- 1980.

متزوجة وأم لأربعة أطفال.

- حاصلة على الإجازة في علم الاجتماع من جامعة محمد الخامس السويسي بالرباط سنة 2003.
- باحثة اجتماعية في العديد من الدراسات والبحوث الاجتماعية الميدانية.
- صحافية سابقة في بعض الجرائد والمجلات الوطنية المغربية.
- مؤسسة ومديرة جريدة الأطفال " المغربي الصغير".
- كاتبة في بعض المجلات الالكترونية ومواقع التواصل الاجتماعي..
- حاصلة على العديد من الشواهد التقديرية الوطنية والعربية.
- مشاركة في الكثير من الملتقيات الثقافية المغربية.
- أصدرت الطبعة الأولى للمجموعة القصصية "ثرثرة فوق الغضب" سنة 2017،

2018 أصدرت كتاب خواطر نسائية "حيث تعدم النساء"

وفي سنة 2019 أصدرت الطبعة الثانية لمجموعتها القصصية "ثرثرة فوق الغضب"..